رقيق الأرض

«لم آت لأدعو خطاة إلى التوبة، بل الأبرار»

هنريك إبسن

إلى السائرين فى الظلمة

وإلى من يلوح لهم من أنفسهم فجر جديد

وبحسبها مسخرة لخدمة هذا المذهب الاجتماعى أو ذاك ، فليست
؟ هى من الصدق فى شئ .
من الكاتب لتسخير القارئ فى خدمة عقيدته

لا شك فيها . إذ نحن لا نعرف من الناس
ـ ، أو طائفة كلها شر ، ولا نعرف من الناس
اف أو جماعة كلها ظلم ، وما من طائفة أو جماعة
بت فسادها ، إلا أمكنك أن تروى عنها كذلك
بها . فإذا قصر الكاتب وصفه على الجانب الذى
ى إلى محاربتها ، أو قصر وصفه على الجانب الذى
و إلى مؤازرتها ، فهو خادع يحجب بعض الحقيقة
، ولن يكون الخداع قريناً للصدق فى عالم الفن
خلاق .
صدق الأخلاقى إن مخالفته لا تجوز إلا مع
ـ أو مع مريض .
، نقول عن الصدق الفنى مثل ذلك . فلا يخالفه
يحسب المجتمع القارئ من الأعداء . أو يحسبه
جمل ما يوصف به أنه كاتب كاذب لعلة ، وخير
كاتب الصادق لغير علة . وهكذا كان الأستاذ

نظمى لوقا مؤلف هذه القصة ، حين عرض لسرد الوقائع ، وحين عرض لوصف « الشخصيات » .

فكل شخصية من شخصيات « رقيق الأرض » فأنت واجد لها نظيراً فى بيئة من البيئات المصرية .

وكل حادثة من حوادثها فمن الجائز جداً أن يصادفها القارئ فى تجاربة المألوفة .

وإنما يربطها الكاتب برباط الفن فإذا هى وحدة حية معروضة فى نطاقها المحدود ، ماثلة أمام القارئ بغير افتئات على فكره أو على شعوره أو على هواه .

ولن يضيع أثر هذا الصدق لأنه صدق بغير دعاية ، فإن المؤلف الصادق لم يعش فى برج من العاج ولم يضع الحياة فى برج من العاج ، بل وضعها حيث يحيا أبناؤها . وحيث يرقبها الناظر البصير على حقيقتها .

وهذا هو الواجب الأول ، بل هذا هو كل الواجب على كاتب القصة والرواية ، وعلى كل كاتب فنان .

* * *

والأستاذ نظمى مؤلف « رقيق الأرض » أديب شاعر ، أخذ بقسط حسن من دراسة القانون ، وأخذ بقسط أحسن وأوفى من دراسة الفلسفة ، واطلع على ثمرات العبقرية فى العربية وفى

اللغتين الفرنسية والإنجليزية ، وواجه الحياة بحس شاعر وفكر فيلسوف . وقد كانت له وهو دون العشرين دراسات لديكرت ، ولما وراء الطبيعة ، تستوجب الثناء لو صدرت من أبناء الثلاثين أو الأربعين .

وقد عالج القصة تأليفاً وترجمة فى مناسبات كثيرة . ثم كتب « رفيق الأرض » فأودعها من هذه الخبرة الفنية وهذه الدراسة القليلة ، خلاصة طيبة تتراءى فى ترتيبها وتبويبها ، كما تتراءى فى صوغها وأسلوبها ، فهى بهذه المزايا خليقة أن تتقدم إلى القراء بغير تقديم .

فإذا قال القارئ بعد الفراغ من قراءتها إن تقديمى لها تحصيل حاصل ، وإنه لم يجاوز الواقع الذى اطلع عليه ، فليذكر أيضاً أن الصدق المنزه الذى يطابق الواقع جائز فى التقديم جوازه فى التأليف .

عباس محمود العقاد

كلمة فى الموضوع . . .

أما الأرض فهى هذا الكوكب .

وأما الرقيق فهم أنا وأنت — أيها القارىء — وسائر من خلق الله . . .

فليست الأرض هى المزرعة ، بل هى هذا العالم الكبير بظروفه وأوضاعه .

وليس الرقيق زارعوها الملتصقون بها ، بل هم هذا الجمع المجتمع مقيدين بهذه الظروف مستعبدين للأوضاع والمواضعات التى تنجم عن حياة الاجتماع . . .

وهل تحسب جميع من يسيرون على اثنتين لا على أربع ، ويخضعون لقواعد متشابهة من المنطق وعلم الاقتصاد وعلم الأحياء ، طرازاً واحداً من الكائنات لا يخضع الواحد منهم إلا لهذه الحدود المشتركة التى يعينها العلم ويرسمها العرف ويسهر عليها القانون ؟

إن الأمر على خلاف هذا . . .

وهان أمر الإنسانية إذن لو أن شخوصها كانت خواء منخوبة كل ما فيها هذه الخلائق الشائعة والسمات الظاهرة دون تمايز فى الكنه ودخيلة الضمير . . .

وهان كذلك كل مشكل ينشأ عن التشابه الظاهرى وقيود الاجتماع . . .

فليس الناس نسخاً من صحيفة الأهرام لا تمايز نسخة منها عن زميلاتها إلا بخدش فى الورق هنا أو حرف مطموس هناك . . . فإن وراء هذا التشابه الظاهر لاختلافا يهون إلى جانبه اختلاف ما بين درجتين متمايزتين من مملكة الحيوان . . .

فإن النفس الإنسانية شىء عجيب حقاً : إنها نهر دافق عظيم ــ كما يقول هنرى برجسون ــ وليست الأعمال الظاهرة فيه إلا ما يطفو فوق سطحه ، أما التيار نفسه فى عمقه ، وشدته ، وحيويته الدافقة فطوى عن أنظار من تبهرهم الأضواء المعكوسة على سطحه اللامع الأخاذ . . .

وإن كل لحظة نفسية من لحظات الطفولة ، وكل أثر من تجاربها لهى « التربية » الحقة التى تطبع ذلك التيار الجارف

بطابعها الذى لا يزول ، والذى ينشأ عنه كل جديد من إحساس المرء وانفعالاته وأفكاره عند ما يشب ، بالقدر الذى تحركه فيه مناسبات العالم الخارجى الذى يعيش فيه الجميع على تشابه ظاهرى فى الصفات والظروف . . .

وإن طعاماً يفيد عملاقاً ويزيده قوة وصحة ، لهو سم قاتل للمريض المحموم ، والاثنان بعد يعيشان فى مجتمع واحد وفى ظروف واحدة . . .

والناس مختلفة نفوسهم كاختلاف معدة ومعدة فى حالى الصحة والمرض ، بل إن الأمر لهو أشد اختلافاً : فهذه الظروف الواحدة فى حد ذاتها ، ليست واحدة أبداً فى آثارها وما تستنفره وتبتعثه فى النفس من إثارات واستجابات . . .

فالمساواة فى الشروط هنا مساواة ظاهرية فقط ، أما من حيث الموضوعات الخاضعة لها — وهى الكائنات البشرية — فإن هذه الشروط لا تكفل المساواة ولا تمت إليها بصلة من الصلات .

عوالم متمايزة معزولة ، مغلقة على ذواتها معظم الأحيان ، بحيث يكون الأخ وأخوه شيئين مختلفين تمام الاختلاف فى

التجربة النفسية التي يبتعثها مؤثر واحد من مؤثرات الحياة الخارجية .

ولكن هل يعنى العرف بهذا الاختلاف ، وهل يحله القانون محل الاعتبار؟ . . .

إن الأمر يتطلب نفاذاً إلى هذه العوالم واستكناها لها غير يسير . . . ، وما أقل الرغبة فى النفاذ إلى الكنه المطوى ، وأقل من ذلك بكثير القدرة عليه . . .

فالعرف العام والقانون الوضعى كلاهما يقوم على المساواة ، وأنها فى الواقع لتسوية لا مساواة ، وبين الأمرين فارق شاسع مخيف خطر . . .

وهل من خطر أعظم مما يحمله خداع الألفاظ ، فنحسب أنا نعدل بين الناس إذ نسوى بينهم تسوية الموازين التى لا تفرق بين الجواهر وأحجار الطواحين[١]، ونحسب أنا بهذا أبرأنا الذمة ووفينا بما افترضنا فى أنفسنا من صدق الحكم حين تصدينا للقضايا والأحكام ؟ ! . .

فكل امرىء رهين بالصورة التى يتراءى بها العالم الخارجى فى مرآة نفسه البعيدة الأغوار ، المشكلة على غير غرار ، والتى

---

(١) العقاد

ينظر إليها العالم الخارجى — أى العرف والقانون — كأنه سطح مستو لا عمق فيه ولا أسرار ، ولا ضرورة فيه ولا اضطرار ، وإنما الأمر كله نسخ مطبوعة لا تنطوى إلا على موضوعات المنطق وعلم الأحياء وعلم الاقتصاد . . .

فنحن بهذا سجناء فى رحبة الأرض ، سجناء فى طوايا أنفسنا ، بل نحن شر من السجناء : لأننا لا نعرف أغوار أنفسنا وأسرارها ، ونؤمن مع هذا بصواب نظرة العالم الخارجى ومقاييسه — لأن مقاييسنا وصيغ عقلنا مكتسبة من حياة الاجتماع التى هى سجن آخر رهيب لا يفهمنا ، ونتقبل نحن مع هذا فهمه لنا فى إيمان وتسليم . ونحن لا نفهم أنفسنا ، ولكننا نخضع مع هذا لها لأنها « نحن » قبل كل اعتبار ، ثم بعد هذا يديننا العالم بمقاييسه العمياء ، بل وندين نحن أيضاً أنفسنا مع العالم فى كثير من الأحيان ! . .

ألسنا إذن رقيقاً فى الأرض ، نخضع دون فهم ولا اختيار لطوايا نفوسنا ، ولا نملك من ذلك فكاكا ، كالمدلجين فى الظلمة على عجز ، وكالذين ضرب عليهم العمى من مولدهم ولا عكازة لديهم ولا رفيق ، وعليهم مع هذا أن يخطوا وفق حدود

رسمها من يزعمون لأنفسهم بصرا ، وإنما هم تواضعوا على تخطيط لمعالم الأرض دون نظر إلى طبائع السالكين . . .

هذه هى الأرض ، وهؤلاء هم رقيقها المساكين . . .

فإذا تخطى واحد منهم تلك الحدود المرسومة ، فتلك هى الجريمة ! . .

جريمة أجل ! بينما فى طوايا النفس لا جريمة . وإنما هو تيار مطرد ينتهى إلى نقطة لا بد منها بحكم اندفاع التيار واتجاهه وبحكم ما يعتاج فيه وما يتلقاه من خارج من موجهات تحدث فيه أعجب الآثار . . .

أما فى نظر القانون . فهذا التطور الطبيعى المحتوم جريمة تنصب لها الموازين ، وأى موازين ؟ تلك التى لا تفرق بين الجواهر وأحجار الطواحين . . .

إنها حقاً لمعصوبة العينين هذه العدالة التى بيسارها السيف وبيمينها القسطاس ! . .

ولست عن عدالة القضاء وحدها أتحدث ، وإنما عن العرف العام ومقاييس المجتمع الخلقية فى مجموعها أيضاً . . .

أما النفس المطوية على أسرارها فتمضى فى طريقها غير

خاضعة إلا لشروط عالمها المكنون الذى تكتنفه الظلمة والحيوية، كما تمضى العدالة أيضاً فى طريقها مغمضة العينين لا تحاول النفاذ إلى ذلك العالم المطوى عن الأبصار ، والذى ينبغى للنفاذ إليه كل ما فى البصر من سلامة وقوة . . .

ولكن العدالة معصوبة العينين . . .

ولكن العدالة راضية عن نفسها أعظم الرضى ما دام فى يدها الميزان الذى لا يفرق بين الجواهر وأحجار الطواحين . . .

ولكن العدالة مقدسة ومستنيرة ، لأنها تنظر إلى الأمور فى ضوء العقل الخارجى وصيغ المنطق وعلم القانون . . .

هذه هى الجريمة وهذه هى العدالة على طرفى النقيض . . .

وهذا بعينه موضوع المأساة التى تعرضها هذه القصة : العوالم المغلقة التى لا تعى ما فى داخلها ، ولا تحسن إدراك ما يحيط بها فهى مستعبدة مرتين : لذواتها المجهولة لها ، ولمحيطها الذى لا يفهمها ويدينها على ما لا يدلها فيه بحكم طبيعتها الكامنة الحرة المجهولة لها وللعالم الخارجى .

وأقول العوالم المغلقة ، وهى هنا نفوسنا جميعاً ، أنا وأنت :

الجالس فى قفص الاتهام ، والمتصدى للقضايا والأحكام ، والمتفرج فى الجلسة على حد سواء . . .

فنحن جميعاً رقيق الأرض المساكين . . .

٠ ٠

لقد اختمر عندى موضوع هذه القصة منذ سنوات طويلة ، حينما أريد لى وأنا فى السادسة عشرة أن أدرس القانون ، فمضيت فى دراسته نيفاً وسنتين ، ولكن الأمر أقلقنى ، وأنا رجل ضعيف عن مغالبة الهواجس ، فلم أجد فى نفسى الشجاعة على التصدى للقضايا والأحكام محامياً أو قاضياً أو ممثلا للاتهام ، فتحولت إلى العوالم المغلقة : عالمى أنا وعوالم الناس أحاول أن أسبر أغوارها . . .

وإنه لطريق طويل . . .

ولكننى غير ضجر بالطول والمشقة ، لأننى رجل غير طموح ، ولا تغوينى الأضواء الباهرة فى بلاط المجتمع الأنيق الذى يحوّل عينيه مستنكفاً عن الظلام ويحب الموسيقى والزينة والأوشحة والعناوين .

وتسألنى أيها القارىء عن الظلام وماذا أعددنا له لكى نسلك فى أغوار الإنسان المظلمة . . .

فأقول هو « الحب والصدق وشجاعة الإيمان » .

هو الحب ، لأنه يخلق المشاركة الوجدانية التى تنتهى بك إلى الفهم وتنقلك إلى شبيه بذلك الجو الذى تريد النفاذ إلى ما يعتلج فيه . . .

وهو الصدق ، لأن الأمانة تفضى بك مع الحب إلى حسن الفهم والعزوف عن زخارف المجتمع ومقاييسه . . .

وهو شجاعة الإيمان ، لأن الإنسان ضعيف وللأضواء فتنتها ، ولأن العوالم المغلقة المظلمة طريقها شاق وطويل ، وليس الوصول إلى شىء ذى قيمة بأمر سهل ولا مضمون . . . بل إن الوصول نفسه لا يبدو فى مستهل الطريق موصلا إلى كرامة أو تشريف .

ولكن عند ما يكون هناك الحب والصدق وشجاعة الإيمان ، يكون السلوك فى الظلام مع عدم التقدير من عشاق الأضواء والمراسيم لذة فى حد ذاته وإن لم ينته إلى شىء كثير . . .

الحب والصدق وشجاعة الإيمان : ليست زاداً لرحلة إلى

أضواء المدينة ومهارج لذاذاتها الصاخبة ، ولكنها زاد طيب لحياة سعيدة تقوم على القوة والإباء . . .

يونيو سنة ١٩٤٥ نظمى لوقا جرجس

١

المجتمع الطاهر يتفلسف . . .

كانت تمر الخواطر برأسه سريعة متقطعة ، وراء جبهته الضيقة التى تعلو عينيه الحولاوين الدائرتين فى محجريهما لا تستقران ، وقد طرح طربوشه إلى مؤخر رأسه المستدير . وهو يتدحرج إلى المنزل فى ظهر يوم من أيام الصيف فى مدينة « د » دافعاً أمامه كرشه الصغيرة التى تهتز مع خطواته الحثيثة القصيرة كقامته المكتنزة ، وقد حفظ توازن تلك الكرش بطيخة عن شمال ، وقرطاس من البلح عن يمين . . .

كانت خواطر « محمد أفندى » عن العمل ، وعن المارة ، وعن هذه الساق الملفوفة الظاهرة الفتنة تحت لفة محبوكة من الملاءة المفهافة ، وعن هذا البرقوق الفاحش الغلاء فى دكان بائع الفاكهة الذى لا يقبل المساومة ويتكلم « بالكناية » . . .

وقطع الطريق فجأة إلى الإفريز الآخر ، ليتحاشى « ممدوح أفندى » وكيل القلم . . . ويا له من وغد خسيس . لا يحلو له أن يتغطرس ويقطب جبينه وينتقد فى حدة واستعلاء إلا عندما يضطر إلى الدخول عليه ليمضى منه بعض الأوراق فى الوقت الذى

يكون فى مكتبه بعض الضيوف . . . والويل له إذا تصادف إن كانت إحدى هاتيك الأرامل اللطيفات فى ثياب الحداد التى تزيدهن فتنة جالسة عند « سى ممدوح » لإنجاز بعض الأمور المتعلقة بمعاش « المرحوم » ! .

وهل هو أكفأ منى هذا الممدوح أفندى ! هراء . وإنما هو حظه وكفاءته الممتازة ، والتى تتمثل أولا وآخراً فى أخته التى تشتغل بالحياكة ، والتى تفصل عندها عائلات « الرياسة العليا » ملابسهن الأنيقة . . .

لقد بلغ الدار أخيراً ، ورفع رأسه وهو ساخط على هذه المذلة التى يلقاها من هذا « الممدوح أفندى » ، فإذا « الولد » فى الشرفة ، ينتظر أوبته . . .

وارتقى السلم ، وقد انقلب استخذاؤه ومذلته إلى تقطيبة عريضة — كم تشبه هذه التقطيبة تلك التى تعلو سحنة « ممدوح أفندى » عند ما ينتهره أمام الزائرات اللطيفات !

إن الولد الخبيث قد طبع قبلة خاطفة ، ويده على الفاكهة ، كأنما تلك القبلة ضريبة الملاهى التى تلقى إلى العامل القاء قبل الدخول إلى الملهى . . .

وبدا صوته فيه استعلاء وغطرسة — صوت لا يعهد فى فى الديوان ، وبخاصة فى مكتب ممدوح أفندى — وهو يلوم امرأته على قلة عنايتها بالأناقة والترتيب ، فإن الملابس مكومة فوق الأريكة عند المدخل . . .

وكانت «ست بليغة» فى هذا الوقت تغرف الطعام فى المطبخ ، وقد لبست القميص «الباتسة اللبنى المسخسخ» ، وأساريرها منفرجة فى غبطة الأنثى عند ما تحس سطوة «الفحل» وتستمرؤها . إنها الجرعة الأولى من الرضى بعد تعب النهار فى سبيل إرضاء الرجل الذى تحس فى سيطرته اطمئنان الغريزة إلى كنفها الطبيعى . . .

وشرع يخلع ملابسه ، وقد زال التقطب عن وجهه ، فقد نفس عن صدره ما لقيه من ممدوح أفندى : أليس يملك هو أيضاً أن يأمر وينهى ، وأن يجد الغبطة فى الأمر والنهى ، وأن يشهد الطاعة حيث ينتظر . إنه الساعة سيد كريم تماماً لا يحس فوق كاهله وقرا ينقص عزته أو يثلمها . . .

ودلف إلى قاعة الطعام ، وقد هش للطعام وتفتحت حواسه لرائحته . فأقبل عليه إقبال المستمتع يملأ شدقيه المكتنزين

كليهما ، ويكاد يحسبه الناظر يأكل بكل جوارحه . حتى شعره وأذناه كانت كأنها كلها تمضغ وتزدرد لقم الطعام ... وعينه الحولاء تحسبها دائماً شاخصة إلى باب الحجرة عن يمين ، بينما هى على الطبق ثابتة لا تريم ...

وجاء دور ضجعة القيلولة ، وقد تفتّحتْ الحواس لها بالطعام ورائحته الفاغمة ، فنشطا لتلك الضجعة نشاطاً طبيعياً تستكمل به النفس الحيوانية متاعها بعد أن استوفت حظها من العلف وفاتحات الشهية من تلويحات الطبيعة التى تفعل فعلها دون وعى ، لأنها أعمق مسرباً فى النفس من كل وعى وتدبير...

* * *

ـــ قومى يا امرأة ... قومى أعدى لنا قهوة العصر...

وانتقل إلى الأريكة فى الغرفة البحرية ، وهو يسوى بيده طاقيته البيضاء فوق رأسه الصغيرة المستديرة كأنها القلقاسة ، ويدندن فى طرب ورضى عن الحياة « يا محنيه ديل العصفورة . ، وباشواتنا جايه منصوره » .

ولعله كان يظن نفسه حينئذ باشاً منصوراً ... والنصر ليس بعد بوقف على ميدان دون ميدان ...

وجاءت «الست بليغة» بالصينية «النحاس الأصفر» اللامعة ، وقد صفت عليها معدات القهوة ، تخطو بها فى نشاط ورضى ، شأن من استوفى حظه من العقار والطعام .

وتلمظ «محمد أفندى» وهو يمتص «شفطة» من القهوة فى تلذذ ظاهر وصوت مسموع ، وتناول الجريدة يتصفحها تصفح المتفرج الذى رضيت نفسه واستراحت أعصابه إلى مطالبها . فبدأت تتطلع إلى الناس من حولها كيف يلقون من دنياهم . وماذا هم فاعلون . . .

وسألته «ست بليغة» عن الأخبار ، فقلب شفتيه وقال «لا شىء . . . ركود سياسى ، وركود مالى . . .» .

وسألته أن يقرأ لها أخبار الحوادث والمحاكم والجنايات ، فإن أمثال هذه الأسرة الشريفة التى يتكون منها المجموع الطاهر السوى الحسن السلوك ، والتى ينهض عليها بناء المجتمع ، وتكون الرأى السائد فيه ، تحب دائماً أن تتسلى بشىء مخالف لنغمة حياتها الرتيبة المغمورة ، سواء أكان ذلك عملا من أعمال البطولة ، أو الحرب أو الفضائح ، أو الجريمة . . .

ولكن الصحيفة كانت مقفرة ذلك اليوم من الفضائح وأعمال

البطولة والجنايات المثيرة ، وأخيراً وقع بصره على هذا الخبر فى ركن منزو من الصحيفة .

«لمندوبنا فى المحاكم : نظرت الدائرة الثانية جنايات المنعقدة برياسة س بك . فى قضية امرأة ألقت بابنتها الوحيدة فى بئر ، ولم تدل هذه المرأة بأى دفاع عن نفسها ، ومما أثار الدهشة أن هذه الطفلة شرعية لا غبار على مولدها ... وقد قضت المحكمة بحبسها ثلاث سنوات مع الشغل والنفاذ» .

— آخر زمن يا امرأة ! آخر زمن! طفلة شرعية ، أنجبتها من زواج شرعى ... أتقتلها ؟ ...

— والله صدقت ! آخر زمن !

— وحكموا عليها بثلاث سنين فقط ؟ مدهش ...

— لقد كان الأولى أن يقطع من لحمها ويطرح للكلاب ..

— هذا حكم يشجع على الجريمة ... كان ينبغى أن تعدم لتكون عبرة لغيرها ... هذه الخنزيرة ...

قالها وهو يطوى الصحيفة ويضعها إلى جواره ، وانتقلوا بالحديث إلى أسعار السمن الباهضة فى هذه الأيام ...

٢

الطست ومنعطفات الطريق

كان البرد شديداً ، وصفحة السماء داكنة ، والريح تصفق مصاريع النوافذ فى غير هوادة ، ولكن الموقد الذى تعلوه قدر الماء ، كان يرسل الدفء فى حجرة الغسيل التى كانت تعمل فيها ، ويداها لا تكفان عن الدلك والدعك والتصبين ، وقد رُكزت عيناها — لا تطرفان ولا تحولان — عن نقطة فى الحائط قبالتها ، وقد أشرق وجهها بابتسامة شاردة ، كأنما تداعب بها حلماً بعيداً يرتسم مشرقاً وراء ذلك الحائط الذى سوده دخان الموقد .

إنها ابتسامة الكائن الحى تداعبه غاية أجنتها أعصابه وطبيعة تكوينه ، فيتفتح لها بمجموعه فى غير مواربة . . . إنها الأنثى تقبل على الحياة وقد آذنت حجبها أن تنكشف دون غاية الطبيعة التى تموه لها بالأفراح والأغاريد ، وبالهزة فى كيانها كله من منبت الشعر حتى القرار .

لقد كان خيالها يطوف — وراء ذلك الحائط — بمنعطفات فى الطريق حيث يركز متبولى « طبليته » بين الفينة والفينة ويبيع

لحم الرأس لعشاقه ومستطيبيه ، وعلى رأسه لاسته المائلة إلى اليسار قليلا ، فوق جبينه الواسع وعينه القوية النظرة الشديدة الأسر ، وشاربه . . . لهفى على ذلك الشارب المفتول ، كم أصمى فؤاد نعيمه ، وكم أثار فى خيالها وطوايا ضميرها الفطرى من أحاسيس مبهمة ، هى بعد مفهومة فى عالم الإحساس والأعصاب حيث لغة المنطق واثارات الوعى لا تفهم ولا تستجاب .

لقد رأت نفسها وقد التفت بملاءتها الحفهافة ، ووضعت البرقع ذى القصبة الذهبية على وجهها — ولكم تبدو ساحرة حين تضع اللثام . وأخذت تتخطر فى الطريق وهى تمضغ اللبان ، وتطرقع به بين شدقيها فى تيه ودلال . . .

وانها لترى نفسها تقترب من ذلك المكان الذى تعلم سلفاً أن متبولى يقف به ذلك الوقت من النهار . . . فإذا بها تحس شيئاً يدفعها من رجليها نحو مكانه ، وتحس شيئاً آخر يريد أن ينحرف بهما عن ذلك المكان ، وهى بين ذلك حائرة يندفع الدم إلى أذنيها وتضطرب خطوتها وتأخذها رعشة تكاد تصل بها إلى الاغماء ، وقد أوشكت أن تلتف قدماها إحداهما بالأخرى .

إنها لا تنظر ناحيته ، ولكنها تعلم أنه ينظر إليها نظرته تلك الفاحصة الكاشفة ، فكأنما هو بتلك النظرة ينفذ إلى صميمها ويفحص استدارة جسدها هنا وهناك ، وهو يدق بالساطور ذلك الدق المتتابع الرتيب ، وعلى وجهه ابتسامة الخبير حين يميز « البضاعة » الطيبة التى تخفى مزيتها على سواه . . .

وإنها لترتعش رعشة قوية ، ولكنها تحس لذلك الحرج نشوة عاتية تتملكها وتغمرها وتغوص فى كيانها إلى الأعماق حينما يقول بلهجته البلدية : ميت حلاوة !

وتتسع الابتسامة التائهة على شفتيها حتى تملأ وجهها جميعاً ، ويحمر وجهها احمراراً شديداً ، ثم لا تلبث أن تنتبه فجأة ، فتحنى رأسها لتنظر إلى يديها وهما تعملان فى الطست ، كأنما هى توجس من كثرة الأحلام أن تصيبها عين شريرة ، أو لعلها أحست خجلا ساذجاً من نفسها أن تسترسل مع الأحلام وأن تستهويها الخواطر ذلك الاستهواء فتنصرف عن عملها هذا الذى تؤجر عنه ريالا كاملا فى اليوم ، تنفق منه على ملبسها وزينتها وتشترى من مدخره الحلى الذهبية التى توسوس كلما حركت يديها — وما أكثر ما تحركهما منذ اشترت هذه الحلى — فإن

أمها « مبروكة » قد كفتها القوت والمسكن بما تبيع من الفول النابت صدر النهار.

وظلت تدعك الغسيل بيديها وهى ناظرة إليهما ، كأنها تحاول تركيز انتباهها فى هذا العمل الدائب فلا يطير مع الأحلام فى منعطفات الطريق .

ولكن لا يلبث الطست والغسيل وحركة يديها أن تتلاشى كلها – ولا تدرى كيف – وإذا بها ترى نافذة صغيرة تطل على حارة نظيفة ، وقد صفت عليها أصص من الزهر والنعنع ناضرة عبقة ، وانسدل عليها ستار كذلك الذى تلمحه فى غرفة نوم منيرة هانم ، عجباً لهذه المرأة ، كيف تمط كلامها وتلويه فى فمها ذلك الي العجيب فى لباقة وتطرٍّ كلما كان « الأفندى » فى المنزل ! كم تفتن هذه المرأة فى الخلاعة تقيد بها إلى جسدها ذلك الرجل المزواج الذى بنى قبلها بست نساء !

وإنها لترى نفسها وقدمدت يدها – يدها فقط – بل أطراف أصابعها من وراء الستار لتضع على النافذة صينية القلل ، وقد لمعت قللها من نظافتها وفاحت رائحة ماء الورد منها ، وإنها لترى من ثقوب الستار ذلك المراهق من أبناء الجيران مصفف

الشعر فى بزة أبناء المدارس المترفين ، وكيف يتطلع إلى هذه الأنامل ويتحرق إلى روية وجه صاحبتها . . . وأنها يومئذ لفاتنة كأنها لم تتروج متبولى بعد ، ولكنها اليوم حصان مخدرة ، لا تخرج لعمل وقد سكنت إلى فحل يكفلها ويرعاها ، وإن كانت تسر دائماً أن ترى جمالها وفتنتها وأنوثتها تثير حرقات الرجال . . .

وإن الغرفة لنظيفة كبيوت التركيات ، ومفارش الأريكة والسرير لامعة — إنها ستفتن فى الغسل والتنظيف حينئذ سيدة لا مأجورة — وستقف خلف ستار النافذة تتسلى بغاد ورائح ، وبنظرة من الفتى اللاهفان فى الشرفة المقابلة ، فى انتظار متبولى يعود من مجلسه مع الجدعان ، ليعقد معها ذلك السهر الشهى الذى ستملأ هى جوه سحراً ورغبة ودفأ . . .

وإنها لترى إخوانه « عترة الحى » يغبطونه على ما غدا فيه من أناقة ونظافة يلفتان النظر ، فإنه « الآن » يصمى قلوب عذارى الحى وإناثه أكثر من ذى قبل بهذا التجمل والتأنق اللذين ستعنى هى بهما عناية خاصة ، لتزيد نار الحاسدات المنافسات ضراماً ، والتفرد باللقمة المشتهاة فيه فوق الشبع لذة ومتاع . . .

وإنها لتعود إلى ابتسامة الرضى واللذة الساذجة بهذا الكيد الذى
تثيره ، وهذا الفوز الذى تحسه وتجتهد فى توكيده والمكايدة به ،
وتتسع ابتسامتها حتى يفيقها فرط ذلك السرور من حلمها ،
فإذا الطست أمامها وهى دائبة بعد على الدعك والتصبين . . .

٣

سرحة فى فضاء شعرى ! . . .

قام من ضجعة القيلولة — إذا صح أن نسميها ضجعة تلك التهويمة اليسيرة المبتسرة التى استغرق فيها متبولى فوق كرسى غير مريح فى قهوة « الحاج خليفة » — فجعل يحرك شفتيه كأنما يتلذذ ببقايا طعام فى فيه . ثم مسح على فمه بظهر يده وتناءب وتمطى ، ثم بصق ، ونادى صبى المقهى ليحضر له فنجان القهوة السادة ..

وجعل ساقاً تحت فخذه على المقعد ، ومد الأخرى على الأرض أمامه يداعب بها طرف مركوبه الضخم ، وهو يتأمل هذه الحركة ، وكأنما قد راقه منظر قدمه العارية ، وما نبت فى أصابعها من شعر أثيث . . . وذكره ذلك برجولته البادية ، فهرش ثم فتل شاربه وهو ينظر إليه فى زهو ورضى !

وجاءت القهوة ، فجعل يحسوها حسو المستأنى ، وقد سرح بصره فى الفضاء أمامه — ولم يكن ذلك الفضاء الشعرى الذى سرح بصره فيه إلا خربة من خرائب الوقف يألفها الناس بين وقت ووقت فى هذا الحى الذى لم تنتشر فيه بعد سنة التخصيص فى المرافق والأوضاع ! . .

إن فيه لرجولة بادية ، وإن فيه فوق ذلك وقبل ذلك لإحساساً شديداً مركزاً بهذه الرجولة ومظاهرها ومدى ما ينبغي لها !.. فهو بهذا الاقتناع يتبع حواء و يطلبها . ويسيل لعابه للفاكهة الناضجة أيان وقع عليها بصره ، تفاحاً كانت أو قثاء .. !

سرح بصره فى الفضاء الشعرى الذى أمامه فرأى نفسه مثار أحاسيس النضج فى كل ثمرة تحس نضجها وتتأهب للسقوط والالتهام متى رأت القواطع والأنياب وعضلات الفك القوية فى وجوه الآكلين . وأنه ليبدو ذا ناب قوية ومعدة تحسن تقبل الطعام وهضمه فى قدرة لا تخفى على صاحب الطعام الذى ينشد له أقدر الآكلين المتذوقين لحسن الطهى والتتبيل !

ورأى الثمرات أمامه نواضج كلهن . ما فيهن ثمرة إلا رفت لنابه بعين ، أو رنقت لفكه القوية بطرف . أو هفت إلى معدته القوية أن تحتويها إلى الأبد فى لهفة وحنين ! ...

ويتحلب « شفطة » من القهوة متلمظاً فى تلذذ ظاهر ، كأنه يتذوق من تلك الثمرات التى تستهويه على السواء . ولا يرى فى أيها اختلافاً عن سائرها ، لأن ما يستهويه فى جميعها إنما هو النضوج ونداء اللعاب والأنياب .

ثم استقرت أمامه صورة « نعيمة » بجسدها الذى يرى تحت الملابس استدارته رأى العين ، ويكاد يتحسس بيديه الخشنتين لين معاطفها و بضاضتها . . . وإنه ليتشمم فى خياشيمه لها ريحاً هو ريح الثمرة الناضجة . . . وقد يكون ريحاً غير جميل ، ولكنه يخاطب الغدد والأعصاب ، ولغير خطاب الجمال خلقت لغة الغدد والأعصاب

ورأى خطرتها تلك فى ملاءتها ، تشعر بالمكانة التى وهى لا تنحدر إلى الحضيض من حساب طبقات الناس كافة . ترتفع إلى الصدر فى ذلك الحى الذى يعيش على عرق السواعد والجبـــاه .

وأن سمات السيادة ، من تلك الملاءة والبرقع ذى القصبة الذهبية ، إلى الحلق والأساور العديدة التى توسوس فى يديها وهى تصلح عامدة من لفة الملاءة فى جانب الطريق لكى تكشف عن ثوبها المشجر من الحرير الصناعى اللامع ، لتستولى كلها على مشاعر متبولى الذى نشأ فى الحضيض ودرج على إكبار سمات العزة والسيادة . .

وإنه ليراها ثمرة مشتهاة إذن لا زهرة مونقة رفافة ، وإن رغبته

لتزيد فيها بتلك البوادر من علامات اليسار التى تفتن مثله وتجتذبه لا انجذاب طامع أو حاسد، بل انجذاب مكبر شيئاً ما لهذا الذى يستهويه ويرغب فيه .

ورأى الثمرة فى شروده ذاك ببصره وقد تضرج خداها بحمرة فوق مالها من حمرة النضوج ، واهتز جسدها فوق اهتزازه بمشية الدلال . كلما اقتربت منه ، ورأى الرغبة فى إغضائها تحت بصره ، وحرصها على المرور تحت ذلك البصر أصيل كل يوم أو قبل الأصيل . . .

وابتسم راضياً عن نفسه ، وشرب بقية الفنجان . . .

٤

دعاء الوليد

استيقظ مضطرباً على صرخة حادة من ذلك الطفل الذى يرقد إلى جواره فوق السرير فيزحمه وزوجه فيه ، فتقلب فى مرقده برماً ؛ وهو يفتح عينيه ويقفلهما بحركة سريعة يتبين بهاصور الأشياء حوله فى ضوء مصباح خافت معلق قبالته على مسمار فى حائط الغرفة المغلقة النوافذ الممتلئة برائحة الكربون المحترق فى تلك الليلة، وكانت من ليالى الشتاء التى تدأب نعيمة فى مثيلاتها على تدفئة الغرفة بوقود من الفحم النباتى تموه رائحته « ببخور السيدة » « وفسوخ الإمام » . . . .

وتبين فى ذلك الضوء الخافت هذه الطفلة الرضيع التى لا يكاد يحسبها المرء مخلوقاً حياً لولا أنفاس ضعيفة وصرخات قليلة حادة منقطعة تند عنها على غير ترقب أو انتظار . . وتبين إلى جانبها تلك الأم المعروقة اليد والساعد ، المتغضنة الوجه بعض الشىء ، المتهدلة الثدى والأوراك ، وقد اتخذت فى نومها وضعاً لا إرادياً باعد بينها وبين إغراء الأنوثة . . .

يا للمرأة ! إنها لم تستيقظ لصراخ ابنتها بعد كد النهار عاملة

فى بيتها إثر عملها فى بيوت الناس بالكراء . . . لقد عجل التعب لها بعلامات السن !

وظل يتفرس صامتاً فى هذه الكتلة الحيوية الملقاة إلى جانبه وهى تغط فى نومها غطيطاً غير رتيب ، بينما ابنته — تلك الصغيرة — تبكى وتنشج فى غير هوادة ولا انقطاع . . . وأما هو فقد كان يتأمل ساكناً فى هذا المنظر ، وقد رفع أحد حاجبيه دون الآخر قليلا ، وقد علا وجهه هدوء لولا التبلد لكان تفكيرا . . .

وأخيراً وضعت الرضيع إبهام يمناها فى فمها وسكتت . وأشاح هو ببصره ونظر إلى السقف ، وأخذ ينقر بأصابعه على عمود السرير الحديدى إلى جوار رأسه نقراً متوالياً خافتاً ، واستغرق فى شرود طويل . . .

وعادت به ذاكرته إلى ليلة الأمس ، إذ آب بعد السهرة إلى الدار . إنه ليذكر الآن تماماً — فإنه لم يفرط فى الشراب هذه الليلة — كيف وقف طويلا فى الظلام أمام الباب ، فى الجانب الآخر من الحارة ، يتطلع إلى نافذة هذه الحجرة وبابها . ويسأل نفسه :لماذا هذا المكان بيته دون غيره من هذه البيوت عن يمين وعن يسار ؟ ! لقد أحس بعض الكآبة وعدم الاكتراث

بالعودة ، ولكن كان لا بد من عودة كما هو الحال فى كل ليلة . . .
ولماذا يعود ؟ هكذا !

وإنه ليذكر الان تماماً كيف رفس قطة « أم صالح » التى وجدها رابضة بجوار الباب تلك الرفسة القوية فى غيظ . . . ليس يدرى لماذا . . . كأنما هى التى كتبت عليه أن يعود كل ليلة ، وأن يعود إلى هذا المكان دون غيره . . .

وهذا الطعام الغث الذى رآه تحت المصفاة على الشباك . .
إنه لا يزال هناك فى موضعه حيث أودعته له نعيمة قبل أن تنام ..
أتحسب لأنها تدفع ثمن الطعام فى هذه الأيام أنه يأكل مثل هذا ؟ لماذا لم ترمه لقطة أم صالح الجائعة . . لعنة الله على « أم صالح » . . وعلى قطتها وعلى آلها أجمعين ،

لقد كانت ليلة الأمس الليلة الخامسة أو السادسة — ليس من عادة متبولى أن يدقق فى الحساب كثيراً ، فقد تكون العاشرة أو العشرين . . لافرق ! — فى صحبة الإخوان فى بار السبعة ثم فى مجلس الأنس والانشراح . .
حياة سريع مرور الوقت فيها ، وفى متعة أيضاً . . . فقد عاد لعابه فى تلك الليالى القليلة إلى المسيل بعد أن كاد يركد هذا العام

الأخير من الزواج ! .. أهذه هى الأنثى التى فتنته منذ ست سنين فبنى بها ؟ وهل هذه « الدربكة » الراكدة الرتيبة هى معيشة الأسرة ؟ وهذه الطفلة أيضاً : كيف انشقت عنها الأرض على غير انتظار ؟

ولوى شفتيه ، . .

نعم إنه ينفق كل كسبه فى تلك الحياة الجديدة ، ولكن لا بأس ، فنعيمة كانت تعمل فى البيوت غاسلة بالكراء ففيم تشبهها اليوم بسمت السيدات وهى لن تزيدهن كثيراً . .

واستدار بوجهه إلى الحائط ، وبدأ النعاس يعاود جفنيه ! . .

٥

منواء القط . . .

قطع عليها إغفاءتها مواء قطط فى الحارة ، كفعل القطط دائماً حينما تتصايح لشأن لها فى سكون الليل . . . فاعتدلت فى جلستها على الأرض حيث كان قد فجأها النوم ، ونظرت إلى السرير لتستوثق من أنه لم يعد بعد ، ثم قامت إلى مرآة مصباح البترول لترى نفسها ، وهل اضطرب شىء من زينتها تلك التى احتفلت لها أعظم احتفال ليلتها هذه ، فوضعت — لأول مرة فى حياتها — من صباغ الأحمر الرخيص فوق وجنتيها وشفتيها الشاحبتين ، وتكحلت وحنت يديها وقدميها ، ووضعت من عطر الياسمين « والتمر حناء ! »

لقد هالها ذلك الانصراف من متبولى عنها ، إثر هدأة الشبع بعيد الزواج ، حتى لقد حسبتها هدأة الاطمئنان والألفة ، فإذا الطريق ينشعب هذا الانشعاب الغريب على غير انتظار منها .

ولقد عادت إلى الغسل راضية ، ولقد حملت وحدها عبء نفقة المسكن والطعام لثلاثتهم راضية كذلك ، ولكن الانصراف

زاد ، وزاد مع الانصراف اشفاقها من الزيادة فيه ، فأخذت ترضاه ، حتى لقد باعت فى العيد الكبير سواراً ذهبياً واشترت له بثمنها طاقماً كاملا من الملابس ، وجلباباً من الحرير وحذاء جديداً وجورباً ومنديلا حريرياً أحمر يضعه فى جيب الجلباب ترضية له أو تبكيتاً كالترضية ، فكأنما فتحت له بذلك باباً كان من قبل يراه مغلقاً أمام ناظريه . . .

فأخذ يسومها المال حيناً بعد حين ، وهى لاتضن به خوفاً من فقدانه ، كأنما هى لم تفقده بعد كل الفقدان . . . ولكنه مراء النفس تنزل عن كل شىء لتشترى بذلك الخسران مؤنة الاعتراف بالخسران ،. . .

أهن خير منها هؤلاء الخليلات من بنات الهوى ؟

أهن أجمل منها ؟

أهن أكثر حُبًّا لهُ منها ؟

لقد تسللت — وقد غطت وجهها — إلى ذلك الحى حيث يجلس النسوة عل عتبات الدور ، فرأت ماذا؟

مساحيق على وجـــوه ، وخرزاً لامعاً على أثواب خليعة . . .

وحركات وإشارات تؤدّى فى غير داع وإن كانت ترمى إلى غرض . . .

وأسرعت فى طريقها . . . وقد انطبعت فى مخيلتها هذه الصورة الصارخة الأصباغ .

عادت فمرت ببائع الأصباغ الرخيصة ، وبائع الكحل والحناء ، وببائع العطر الفاقع فى الزقاق المجاور ، ودخلت الحمام وأخذت زينتها ثم استشارت مرآة مصباح البترول بعد أن عصبت رأسها بمنديل مرصع بالترتر استعارته من جارة لها . فأفتتها المرآة أنها كإحداهن سمتاً وشارة . . . فابتسمت راضية وجلست على كرسى وطىء كجلسة إحداهن ، وقد رفعت فضل ثوبها فوق ركبتيها — ياللمسكينة ! لقد أضحى وركها متهدلا من أثر الإرهاق بين الطست والمنزل وسوء الغذاء !

بهذا المنظر الهزيل فى فتنته ، الهازل فى صورته ، الفاجع فى دلالته ، جلست نعيمة تنتظر متبولى عندما يعود من السهرة ، لتفتنه عن خدينات اللهو وصديقات الشارع . . .

وفى هذه الجلسة غلبها النعاس ، حتى أيقظها تصايح القطط لشأن لها فى الطريق . . . وجعلت تنصت لعلها تسمع وقع أقدامه

ولكنها لم تسمع إلا ذلك المواء الدائب الغريب ، فجعلت تنصت له فى صمت وهى تبتسم فى بلاهة . . . حتى دهمها النعاس مرة أخرى وهى على هذه الحال . . .

٦

يقظة الصباح

لم تجتذبه مهارج الزينة التى اصطنعتها له ، بل لقد أثارته إلى ما لم يقترف معها – رغم كل شى – ، وهو ذلك الضرب المبرح المغيظ الذى انهال به عليها عندما رآها على هذه الحال ، بعد أن كان يكتفى قبل بالإعراض فى مسالمة وسكون .

« أولئك بنات الهوى . . . أرغب فيهن ؟ نعم ! أذهب إليهن دونك ؟ نعم ! أما أن تتشبه بهن امرأتى . . فكلا ثم كلا ! تلك سبة وكفران مبين ! »

إنه لم يقل هذا تماماً... فما هكذا تفكير الرجل فى دقة ووضوح ولكن هكذا كان منطق عواطف الرجل . .

لم يعد أمامها من باب تطرقه إذن إلا الأشياخ وإخوان العفاريت والجان ، وللشيخ رجب سمعة لو صدقت فهو ذو قدرة لا تخيب !

وسمعت أخيراً وقع أقدامه وقد قارب الفجر أن يطلع . فسارعت إلى ذلك الماء المسحور الذى أعطاها إياه الشيخ رجب أمس ، فدلقته أمام عتبة الباب من الداخل حتى يخطو فوقه ، وهى

واجفة القلب راعشة اليد ، ثم انكفأت إلى السرير فاصطنعت النوم ، وقد واربت جفنيها قليلا لترى ما هو صانع . . .

ـ وافرحتاه وشكراً لله ، لقد خطا بقدميه كليهما فوق الماء المسحور ، ولا يلبث السحر أن يفعل فعله ، ويعود متبولى إلى سابق حاله . . .

هاهو يمشى على أطراف أصابعه نحو السرير .˚. عجباً ! إنه الليلة غير مخمور ، سرك باتع ياشيخ رجب ، إنه يحدق فيها وفى الطفلة فيطيل التحديق . . لماذا ينظر هكذا ؟ ولكنه هادىء الأسارير . . هاهو يصعد ويرقد . . .

نظر إلى ذلك العرق الخشبي الممدود فى السقف الذى طالما نظر إليه كلما صحا فى الليل وجال بخاطره أمر من الأمور . . لقد كانت هذه أول ليلة منذ شهور عديدة لم يسهرها مع الإخوان فى بار السبعة ثم عند « عزيزة الزعكة » أو « إحسان الجحش » .

لقد قضى هذه الليلة وحيداً فى قهوة « الترسو » فى محطة « باب الحديد » . لا يدرى لماذا ؟ إنه مكان لم يطرقه من قبل ،

فهولم يغادر القاهرة فى حياته أبداً ، ولكنه هكذا وجد قدميه تسيران به .

لقد مل هذه الحياة . . ماذا ؟ بل إنه لم يعد يطيق هذه الحياة لقد فرغ ثمن آخر سوار هذه المرأة الراقدة الآن إلى جواره ، بعد حلقها وكردالتها وعصبة برقعها وخلخالها القشرة . . .

لقد كانت تستبقيه بالثمن ، وبالثمن أيضاً كان هو يحصل على غيرها ويستبقيهن ! .

لم يشعر باشمئزاز ، كلا . بل بمجرد رغبة فى الانصراف عن هذه الوتيرة ، فإنه يريد أن يرى نفسه مرة أخرى قبل فوات الأوان « عنترة » ومنى صبية غريرة بضة لم تعرف الرجال . . .

وذكره هذا بأول بخته مع نعيمة . . .

ونظر إليها طويلا . .

كم تغيرت الأيام ! أما هو — معاذ الله — فلم يتغير !

وماذا يستطيع هو مثلا أن يصنع للقدر إذا شاء أن تتغير الأيام ؟ ألعله قادر أن يغير المكتوب ؟

وهز كتفيه وهو راقد ، وقال لنفسه بصوت يكاد لايسمع :

— أبداً !

ونظر فوق رأسه إلى (شيش) النافذة ، ثم دفع بيده فى كتف امرأته ــ التى لم تكن قد نامت بعد ــ وهو يصيح بها ليوقظها :

ــ خلاص يا امرأة خلاص ، لقد طلع النهار !

٧

رتيبة . . . بائعة اللادن

فى خفة ظاهرة أقبلت ترص بضاعتها صدر الضحى ، على الرصيف المواجه لمكتب البريد ، وهى تدندن بأغنية شائعة فى تطر وتحرك مع النغم رأسها ، فيهتز لتلك الحركة ما علقت فى رقبتها من حبات الكهرباء الكبيرة . ويتماوج الترتر الكثير الذى يتدلى من عصبتها الجنزارية اللون المائلة على جبهتها السمراء لتسمح لتلك الخصلات من الشعر ذى الصباغ الأصفر الفاقع أن تبدو للناظرين فينسجم لونها مع السن الذهبية فى جانب الفم المفتوح دائماً إما بالابتسام . وإما بالكلام ، وإما بمضغ اللبان ! وسوت صدرها بيدبها حتى تبدو تفاصيله من ذلك الثوب الأسود غير المحبوك الذى لا يخفى نسيجه القميص الأصفر من تحته . .

ومر بدير بائع الصحف الأعمش ، فمال عليها وهى جالسة على الرصيف تعبث بميزانها الصغير ، وهمس لها بضع كلمات فى تظرف ، وهو « يبربش » بعينيه ، فضحكت البائعة الصغيرة ضحكة ممطوطة رنانة وصاحت

– شوفى ياختى الواد ، اختشى يا واد انت ، يادى النيلة !

وانطلق « الواد » فى طريقه مسروراً بهذه الغزوة الصباحية ، وعادت هى إلى أغنيتها الشعبية ، وإلى نش الذباب . وهى تنظر بين لحظة وأخرى إلى منعطف الطريق كمن ينتظر شيئاً معلوماً . . ثم أخذت تصلح من جلستها ومن شعرها ،وهى تتشاغل بالنظر إلى اللادن ، ثم وقفت أمامها كسوة صفراء ، فرفعت نظرها كمن فوجئ بما لا يتوقع ثم قالت :

— بسم الله الرحمن الرحيم . . . صباح النور ياسى ابرهيم . .

وأجابها صاحب الكسوة الصفراء ، وهو يبتسم عن فم واسع وأسنان سود تحت شارب حديث الصباغة ظاهرة فيه تلك المعاجين التى تستعمل فى التطرية والتثبيت ، وفى صوته بحة كشنشنة الإناء المشدوخ :

— . . . الفل على عيوناك !

ولم تكن ترى عينيه ، لأنهما بحيث لا يميزهما المرء بسهولة . .

ولكنها أحست أن تحت هذين الحاجبين المصبوغين عينين تحدقان فيها بخليط من الإعجاب والسرور والرغبة . .

وهى لا تدرى لماذا انصرفت عن كل ما فى وجهه المائل فوقها وهى جالسة . لتنظر فى اهتمام إلى الزر الكالح المتدلى فوق أذنه

اليسرى ، والذى كان يهتز مع كلماته وضحكاته التى تشبه رنين الإناء المشدوخ ، ولعلها كانت تفكر فى نفسها : لماذا لا يصبغ هذا الرجل زر طربوشه أيضاً ، فإنه هو الآخر قد شاب ! . .

— فصين لادن من يدك الحلوة !

وناولها قطعة من ذات نصف القرش ، وضعها فى كفها وهو يغرسها فى لحم يدها غرساً .

ثم تناول اللفة الصغيرة ومشى ، وهو يزن خطوته وزناً دقيقاً ، وتابعته هى بنظرة فيها زراية وضحكة مكتومة وهى تقيس من ظهره قامته التى أجهد نفسه مطها مطاً ، وهمست بكلمة ذكرت فيها بعض أهله ، ثم رفعت صوتها الرنان تنادى على « اللادن » ، حتى يسمع وهو فى مكتب البريد نبراتها الممدودة ، لتزيد شيخوخته المموهة اضطراباً وحرقة ، ولتزيد فى المساء مقطوعيته من الصباغ والمعاجين ومجددات الشباب وبقية ما يبيعه العطار لمن يحسون وطأة الزمن وهم بعد متشبثون بأطوار الصبا فى إصرار متزايد ولهفة تشبه الجنون .

واعتدلت فجأة فى جلستها ، وغطت بفضل ثوبها المتهدل مفرق ثدييها ، وغضت من بصرها فى اصطناع يقرب من

الصدق ، ثم اقتربت منها خطوات المركوب الضخم ووقع عليها ظلٌّ منبسط عريض ، ووضع متبولى طبليته إزاءها فى سكون وقال:
— كيف الحال ؟

فرفعت إليه بصرها فى تطلع تموه له بالحياء ، ثم غضته سريعاً وقالت ولم تزد :

— معدن . . .

وبرم هو شاربه فى زهو . . . وأخذ يتفرس فى هذا الشعر المصبوغ ، وهذه السن الذهبية ، وهذا الثوب الذى يشف عن القميص الليمونى المشغول ، وفى هذه الخلاعة الخافية البادية ، وهذه العين التى لا ترتفع إليه لأنها تحس طغيان رغبتها فى التعلق برسمه الوسيم . . . فابتسم وتنحنح ، وجعل يخبط بساطوره « الطبلية » الغليظة فيحدث صوتاً متتابعاً خشناً ، وباع لهذا الزبون وذاك ساعة من الصباح ، وهو لا يحدثها ولا تحدثه إلا نذرا ، وإلا حين يقدم إليها بعضاً من طيبات بضاعته بين فترة وأخرى . . .

راقه فى استواء الكهولة أن يرى خلاعة بادية تتخفى بقدر ما تعفى موروثاته من التجريح ، وتبدو بقدر ما يوائم ما فوق

الثلاثين ودون الأربعين من إثارات شبيهة بما عهد فى النساء المدربات على استهواء الرجال ، ومن تحشم يرضى أثرة الرجولة ويشعرها بمنعة الحوزة وصيانتها وبوجود الحمى الذى ينفرد هو بالسهر عليه .

وبرم شاربه وهو ينظر إليها فى زهو وكأنه يقول :

— أعلى أنا يجوز هذا الحياء ؟ أنا وحدى أفهم هذه الطراوة وهذا التكسر فى الجفن وهذا التخلع فى الجلسة والإشارة . . . إن هذه الطراوة ترضينى ، لأننى أنا أعرف معناها .

وسعل فى صوت جهير ، سعال من يعرف كيف يعبر عن قوته واعتزازه بها حتى عن طريق هذا العرض من أعراض المرض والإعياء . . .

وحمل طبليته وقال لها :

— بنت يا رتيبة . . . أمك فى البيت ؟ العصريمكن أفوت. . . ابقى قولى لها

ومشى يضرب الأرض فى مشيته ، ولو أنه كان ذا ذنب لكان اهتزاز ذلك الذنب وئيداً فى قوة واعتداد ! . . .

٨

العودة من الدفن . . .

انقطعت الجلبة بعد انصراف المعزيات من الغرفة العارية تماماً إلا حصيراً مفروشاً على أرضها ، وموقد البترول فى ركن منها ، والطراحة والمصباح الصغير ذى المرآة على مسماره المعهود ، وقليل من آنية النحاس . . . قليل جداً : مصفاة وحلتان وصينية القلل والستارة الناصعة التى لم تشأ نعيمة أن تفرط فيها كآخر علامات المتعة والستر ، ترفعها للعالم أجمع من هذه النافذة . . .

لم تقم لتغلق النافذة كما كانت تفعل كل مساء ، فإنها الليلة متعبة قليلا ، وتحس جسمها ثقيلا كأنه كيس من الرمل ، ولم توقد مصباح البترول لأنها متعبة ولأنها أيضاً لا تريد مزيداً من النور فإن ضوء القمر الباكر يكفى ، ثم هى لا تريد أن ترى شيئاً ما ، ولا يعنيها أن ترى شيئاً ، فهى جالسة فى الركن على الأرض هكذا ، وقد ضمت ركبتيها إلى صدرها ، وأسندت رأسها فوقهما ، وأغلقت عينيها كمن يهم للنوم . . . ولكنها لم تكن نائمة .

وكل ما هنالك أنها تجهد ذهنها لتفهم ما دار حولها وما حدث

لها طيلة ذلك اليوم . . . إنها تحاول أن تفهم ، وأن يكن كل ما حدث أموراً بسيطة واضحة سهلة الفهم جداً . . . إنها تعرفها كلها ، كل أمر منها على حدة ، ولكنها مع هذا لا تفهمها .

ونظرت حولها فى الغرفة . . . لقد كان ضوء القمر الباكر أكثر مما يلزم لرؤية كل شيء فيها . . .

لقد كانت راقدة هناك ، فى هذا الركن البعيد من الغرفة ، عند ما دق بابها فى الصباح ، وقيل لها إن أمها « مبروكة » قد ماتت فى المعزل . . .

لقد وجمت ساعتئذ قليلا ، وكررت السؤال :

— ماتت ؟ ماتت حقيقة ؟ !

وهل يمكن أن يموت الإنسان إلا موتاً حقيقياً ؟ لقد خيل إليها مع هذا أن أمها الحدباء العجوز يمكن أن تموت ، وأن يكون موتها غير خالص ، فتجلس رغم موتها فى مكانها المألوف تبيع الفول النابت وتنظر إليها بعينها الوحيدة التى لا تزال ترى بها نور الدنيا نظرتها السريعة النافذة تلك ، ثم تهز رأسها وتقول :

— والله انبريت يا نعيمة يا بنتى ! لوكان عاش لك أخوك

عبد الحى ! .. الرجال أقوياء ما لهم إلا القوى .. الصبر طيب يا نعيمة ....

لقد كان يخيل إليها أن موت أمها ليس بحارمها من هذه اللحظات القصار مع أمها ، ومن هذه اللمسات الرفيقة التى تعودتها منها يوماً بعد يوم ... ولكن موت أمها كان موتاً خالصاً .

لن تستطيع العجوز المسكينة أن تنظر إلى ابنتها إذن هذه النظرة ، وأن تجلس بحدبتها وقصعتها فى جانب الطريق ...

لا تذكر هل صرخت عند ما أيقنت بموت أمها الخالص المؤنس هذا مع الصارخات من الجارات . ولكنها تذكر أن ذلك اليوم كان زاخراً بالصراخ طول الرحلة إلى المعزل .

وهناك لم يدعوها ترى أمها ... فعادت فى ذلك الموكب الصارخ إلى هذه الحجرة نفسها ، لتعقد مجلس العزاء ...

وفى هذا المكان عينه جلست ، وجلس النسوة من حولها ، يصرخن شوطاً بعد شوط ، وقد تطوعت إحداهن بالنواح ، يوقعن على نغماته الحزينة بالالتدام والتصفيق الرتيب .

لقد سمعت فى أمها ذلك اليوم من الصفات ما لم يكن يخطر

ببالها أن توصف به أمها يوماً من الأيام . . .

– يا خسارتك يا مبروكة يا أم عبد الحى ! يا صغيرة يا اختى يا أم عبد الحى ؟ يا حلاوة لفتك فى الملس يا أم عبد الحى ! . . .

لقد كانت تنظر إليهن ببلاهة ، وهن يقلن هذا ، وتحدق فيهن ، ولكنها لا ترى على وجوه القائلات سخرية ولا شماتة ، بل كن يعنين هذا القول . . .

ولا تدرى لماذا ودت من صميم قلبها لو أنهن ذكرن لأمها حدبتها تلك التى انفردت بها دون سائر الأمهات . . . فإنها لتحس أن ذكر تلك الحدبة خليق أن يثير اللوعة فى قلبها على أمها الشوهاء أكثر من كل وصف آخر بالأناقة والحلاوة وحبكة الملبس الملفوف . . .

لماذا لا يذكرن أنها عجوز ؟ فإن ذكر هذا كان أوجع للقلب من وصفها بصغر السن وغضارة الإهاب . . .

وتنهدت وهى تذكر هذا . . .

من لها بنظرة أخرى من عين أمها الواحدة ، ونظرة إلى حدبتها الكبيرة الظاهرة التى لم تكن تحاول اخفاءها – لأنها

لم تكن لتخفى ! — ومن وجهها الذى غطته التجاعيد وخطوط الزمن .

هذه الأسنان التى سقطت ، والعظام التى برزت والتجاعيد التى ارتسمت فى عمق على جبينها وخديها . . . أوجع لقلبها من كل صفات الجمال والشباب ، فإن الجمال والشباب تفه كله . . . تفه ومضحك أيضاً ، حين يقاس إلى هذه المأساة التى تحسها فى قلبها بفقد تلك العجوز الشوهاء فقداً لالقاء بعده . . .

وانسابت فى سكون على خدها الدمعة الأولى التى ذرفتها على أمها ذلك النهار . . .

وقامت تفتح لطارق دق الباب .

إنها « أم صالح » جارتها ، ترد إليها ابنتها التى قاربت العام من سنها والتى كان بنات أم صالح الكبيرات يعنين بها اليوم كله . . .

لقد كانت نائمة . فأخذتها « نعيمة » على ركبتها وجلست حيث كانت جالسة وأخذت تنظر إلى نقش ملون باهت فى الحصير . . .

ماذا بقى لها من دنياها ؟

هذا الحصير ، والحشية ، وهذه الآنية من النحاس ، والموقد والمصباح ، وهذه البنية ، والستار ذى الثقوب . . .

ونظرت إلى الستار . . .

وذكرت فى هذه اللحظة ــ لا تدرى لماذا ، فليس هذا أنسب الأوقات لمثل هذه الذكريات ، ولكن الإنسان يذكر أحياناً أشياء فى أبعد الظروف عن مناسباتها ــ ذكرت كم تمنت هذه الستارة طول صباها ، وكم تمنت معها للجيران ابناً ظريفاً مراهقاً مصفف الشعر يذهب إلى المدرسة ، ويجلس عصر كل يوم فى الشرفة المقابلة يتصيد نظرة منها وهى تضع صينية القلل أو تسقى أصص الزهر والنعنع العبق المصفوفة على نافذتها الصغيرة . . .

لقد كانت لها الستارة ، وصينية القلل ، وأصص الزهر والنعنع ، أما الجيران فلم يكن لهم ابن جميل ولا غير جميل . . .

وامتلأ قلبها بالسخط والنقمة على حظها التعس . . .

ولا تدرى لماذا نقمت هنذا على الدنيا ذلك الحرمان الذى يبدو تافهاً لا يمت إليها بصلة مباشرة وثيقة . . . لقد أحست بالنقمة كلها تتجمع فى صدرها ، هى التى لم تحس نقمة كبيرة على

الدنيا عند ما أيقنت بموت أمها ... موتاً خالصاً أيضاً ولا رجعه فيه

أما أصص النعنع والزهر فقد أتلفها صبيان الحارة الشياطين ، ولكنها هزت كتفيها ، فما يعنيها الآن هذا ، والجيران ليس لهم ولد ، بل كلهم بنات ، بنات ، بنات دائماً وفى كل مكان. . .

وطفقت تبكى فى مرارة وعنف ... حتى دهمها النوم وهى جالسة ، وابنتها نائمة على حجرها ، وقد جفت دموعها على خدها الكالح الحزين ، وضوء القمر الباهت قد غطى المكان . . .

٩

الحاج محمود قصير الديل . . :

عادت بحملها الثقيل إلى المنزل

لقد كانت تحمل ابنتها ، ولكن الناظر إليها من خلف وهى سائرة ، كان يحسبها تحمل عشرة أضعاف ما تزن هذه الطفلة الهزيلة الصموت عن كل مناغاة إلا صرخات منقطعة قصيرة تسكت فجأة كما ارتفعت فجأة ، وإبهام يمناها فى فمها معظم الأحيان : يقظى ونائمة . قاعدة وقائمة .

لقد كانت تحمل فى الواقع أيامها وابنتها وتعب يوم آخر إلى الغرفة العارية .

ودخلت فشقت طريقها إلى النافذة ففتحتها ، إلى موقد البترول فأوقدته ، وانصرفت إلى عمل قهوة الغروب ، لتقرأ أيضاً طالعها فى الفنجان كما تعلمته من جارتها العجوز « أم صالح » .

وسمعت نقراً خافتا على الباب ، كأنما صاحبه متردد بين الدخول والإحجام .

وأنزلت « التنكة » من فوق الموقد ، وهى تسأل نفسها من

يكون الطارق ، فليس هذا حس طرقة أحد ممن تعرف من الجارات واللواتى يرتدن حجرتها كل مغرب وعشية للثرثرة ، أو لاستعارة قليل من الملح أو « تلقيمة » بن أو موقد البترول « غلوة واحدة بس » .

ومضت فى عجلة واستطلاع تفتح الباب للطارق الذى لم يكرر الطرق على غير عادة سكان هذا الحى إذا أنسوا انصرافاً عن استجابة الطرقة الأولى .

وقرأها السلام رجل فيه كبرة وتوقر ، وفى وجهه شىء من التوجس يحاول اخفاءه بابتسامة واسعة لا معنى لها مع تلك النظرة القلقة التى ألقاها عليها وعلى الغرفة من فوق كتفها فى سرعة ثم ردها إلى وجهها ثانية .

ودعته إلى الدخول ، وإلى الجلوس فوق الحشية التى أضحت أثاث الغرفة الوحيد عدا الحصير وآنية النحاس والستار وموقد البترول .

وجلس الرجل القرفصاء ، وجعل عصاه بين ركبتيه ينكت بها الأرض ، وهو ينظر إلى حذائه البالى ذى الرقبة و« الأستك » ، ثم قال كمن يريد أن يقول شيئاً يقطع به السكون .

ــ سلامات يا ست نعيمة . . .

ــ أهلا وسهلا ، حصلت البركات . . .

وخصته بفنجان القهوة من دونها ، وتربعت على الأرض قبالته وهى تنظر إليه نظرة استطلاع فاحصة .

ــ أنا الحاج محمود قصير الديل . . . شيخ الحارة .

ــ أهلا وسهلا . . . خير ان شاء الله .

ــ خير . . . أى نعم خير . . .

وشرب بقية الفنجان جرعة واحدة ، كأنما يريد أن ينجز هذه المهمة قبل أن يتكلم فى موضوع حضوره فينقطع عليه طريق شرب بقية الفنجان . . .

ومن يدرى . . . فلعلها ساعتئذ تخطفه من يده قبل أن يشربه ، أو تصرخ فتلم الجيران والجارات ، ولا يبقى أمامه من سبيل وسط هذه الضجة لشرب هذا الفنجان المغرى ذى الرائحة الفاغمة . فلقد شهد مثل هذا فى مثل هذا الموقف ، وعلمته التجربة الطويلة أن يتوقع أى شىء وألا يستبعد أمراً من الأمور .

ومسح فمه بظهر يده ، وهو يحرك شفتيه مستجمعاً بقايا القهوة

من بينهما متحلباً إياها بلسانه ، ثم تنحنح وقال بسرعة عجيبة لا تنتظر ممن كان فى مثل سنه ، كمن يخشى أن يقف به لسانه دون نهاية الشوط لسبب من الأسباب :

— كل شيء قسمة ونصيب ... وإلا ماذا ؟ أى نعم قسمة ونصيب ... النهاية بقى .. خلاصة الكلام إن « سى متبولى » ... إيوه سى متبولى بعث لك الورقة هى معى وعلى كل حال ربنا عنده العوض . وانت لا تزالين شابة والرجال كثير ... ويمكن يكون خير يا بنتى ... ؟ أى نعم يمكن يكون خير ... ولعكم تكرهون شيئاً ... وإلا ماذا ؟ يمكن يكون فيه عدل فى واسع علمه ... هى قسم ... قسمة ونصيب .

وانصفق الباب ... وكانت الورقة مطوية فوق الحشية القذرة ، وكانت هى تحدق فى الباب ، وهى تصغى لوقع خطواته الثقيلة مسرعة يخالف بينها بوقع عصاه على أرض الحارة الصماء ...

أهذه هى النهاية إذن ؟ ...

ألهذا كانت زيارته لها أول من أمس ، بعد غيبة طويلة ، ومبيته معها ، وترفقه بها تلك الليلة فى حال كان قد انقطع عهدها

بهمن زمن ، حتى تجدد لديها الأمل أن يكون قد تشوق إلى محاسنها .

محاسن ؟ أى شيء هـــذا الذى بقى من جسدها الهزيل المتداعى ؟

لقد كان لقاء الوداع . . . كمن ينظر فى خطاب قديم لا قيمة له ، ليستوثق من تفاهة أمره قبل أن يمزقه أو يلقى به إلى النار.

لقد كانت تنظر إلى الباب الذى أغلقه الحاج محمود خلفه ، وظل بصرها معلقاً بالباب المغلق الذى خرج منه الحاج محمود كما خرج منه رجلها منذ يومين . . .

رجل خرج وأغلق الباب وراءه . . . وخطواته السريعة ترن مبتعدة حتى تتلاشى . . .

ماذا فى حياتها الآن غير هذا ؟ . . .

وتنهدت ، ثم حولت بصرها إلى « حياة » النائمة فوق ركبتيها . وأخذت تنظر إليها فى بلاهة وصمت ، وقد خـيّم الظلام على المكان . . .

١٠

هدية القدر . . .

قاربت الشمس أن تغيب ، وهى جالسة على طرف الطراحة وقد اعتمدت رأسها على راحتها ، تنظر إلى ركبتها أو يبدو كأنها تنظر إليها ، ثم تلتفت بين حين وحين لتلقى على الطفلة الراقدة على مقربة منها نظرة قلقة غامضة فيها غير قليل من التبلد وعدم الإدراك . . .

لقد كانت الفتاة نائمة نوماً غير شاذ فى مظهره ، فهى لا تتأوى ولا تصرخ . . . ولكنك لو دققت النظر فى وجهها لوجدت دملا صغيراً بين عينيها المغمضتين ، هنا فى أعلى الأنف حيث يتصل بالجبهة .

كان دملا صغيراً كغيره من الدمامل الصغيرة التى يمتحن بها الناس والأطفال خاصة فى مثل هذا الحى .

ولكن الفتاة عافت الرضاع منذ يومين ، وانقطع أو كاد ذلك الصراخ الذى تعود أن يند عنها فجأة وينقطع كما ارتفع فجأة ، وهى اليوم ساخنة لم تفق من نومها هذا ولم تنتبه أبدا رغم محاولات أمها الكثيرة ، التى انتهت بها إلى الدهشة

والقلق وتسليم التبلد والانتظار .

وإن جبينها لحار شديد الحرارة ، فلو أنك فكرت فى امتحان الفتاة بالمقياس لأشار الزئبق إلى درجة الحمى المرتفعة ، ولكن نعيمة لم تكن تعرف المقياس ولا هى فكرت فى شىء من ذلك ولا أحست بحاجتها إليه ، بل إنها لم تفكر فى أن تصنع للصغيرة شيئاً ، لأنها لم تفهم شيئاً من هذه الحالة الطارئة الغريبة ، ولم يقلقها أبداً ذلك الدمل الصغير ، ولم يخطر ببالها قط أن يكون له أدنى صلة بهذا العارض الذى ترزح تحته الفتاة منذ يومين .

وقامت إلى مصباح البترول فأشعلته ، ثم انكفأت إلى مكانها فى صمت وحيرة .

ودفعت الباب « أم صالح » ، ودخلت تحوقل وتبسمل وفى يدها طبق من الصاج يتصاعد منه خيط من الدخان ورائحة بخور رخيص .

ورفعت نعيمة عينها إلى القادمة ، وتابعتها ببصرها حتى جلست إلى جوارها على الطراحة ، ومدت ساقيها أمامها ، ووضعت حملها الثمين فى عناية وحرص على الحصير بينهما ، ثم

أخذت تمزق قطعة من ورق الصحف فجعلت منها « عروسة » طفقت تخرقها بإبرة أخرجتها من ثوبها عند الصدر ، ثم دارت بالعروسة حول رأس الفتاة الغائبة عن الصواب دورات سريعة وهى تتمم بأدعية وتعاويذ، وقد أضفى ضوء المصباح الخافت على وجهها المجعد الجامد النظرة وشعرها المصبوغ بالحناء رهبة وغموضاً كأنها ساحرة عجوز لا تنقصها المكنسة كى تطير أو تصنع الأعاجيب .

ثم ألقت بالعروسة فى النار ، ورفعت الطبق فجعلت تطوف به حول رأس الفتاة وجسدها سبعاً ، ثم أعادت النار إلى مكانها من الحصير ، وألقت فيها قطعة من الشب جعلت تفور كما يصنع الشب إذ يوضع فى الجمر ، ولكن الفوران هنا كان ينظر إليه كعجيبة من الخوارق تكمن وراءها قوى غامضة من عالم غير منظور ، وإذا الشب قد تشكل تلك الحاسدة اللعين التى أصابت الطفلة بشر عينها الصفراء . . .

وجعلت تتأمل قطعة الشب هنيهة ، وقد قربتها من عينيها الخابيتين ، ثم شهقت وسحقتها فى كعب المريضة الأيسر ، وجعلت المسحوق فى خرقة صغيرة أحكمت رباطها . وخرجت لترميها

فى مفرق أربع حارات ، حتى تأخذ أقدام الناس هذا الداء إلى مكان سحيق . . .

كل هذا والفتاة غارقة فى غيبوبتها ، وأمها جالسة ترقب ما تفعله العجوز فى صمت وأمل ، ثم قامت فجاءت بماء اطفأت به جذوة النار وهى تشهق ثلاثاً . . .

وعادت أم صالح من مهمتها فجلست تثرثر بصوتها الهزيل المرتفع كنقيق الضفدع ، وتقص على « أم حياة » قصصاً متشابكاً لا ينتهى عن مرضى لم يعرف أحد ماذا أصابهم ، ولم يستطع نطس الأطباء ، حين استدعوا ، أن ينتهوا إلى قرار أو علاج ، ولكن « الأثر » استطاع أن يهدى إل علة العلل فى هذه الأدواء المعضلة ، فإذا به « عمل » مدسوس فى مجرى ماء أو مدفون تحت عتبة الدار . فلا ينقطع المرض ما دام « العمل » قائماً أو يشفى بصاحبه على الهلاك . . .

وفى كل قصة من هذا القصص الرهيب كانت رأس نعيمة تدور . وكانت نفسها تضطرب ، وعينها تزوغ جزعا ورهبة ، فلا بد أن ابنتها مريضة بفعل سحر مدفون . فإن مرضها يبدو غامضاً جداً غير مفهوم ، بل هو لا سبيل إلى فهمه : فالفتاة

لا تسعل ، فهى إذن غير مصابة ببرد ، وهى لا « تسهل » فهى إذن غير مصابة بداء فى الجوف ، فلا بد أنه السحر . ولا بد أنه كيد « رتيبة » ، تلك اللعوب التى عقد متبولى عليها وإن لم يزف إليها بعد . . . فلا شك أنها تخشى أن يعود متبولى إلى زوجه القديمة لأنها أم ابنته ، فإن هذه الابنة مظنة انعطاف بين الزوجين القديمين فى يوم من الأيام ، وهى على كل حال صلة باقية بينهما لا سبيل إلى فصمها إلا بالقضاء على هذه الطفلة الصموت . . .

وهل يبعد على من كانت شريرة مثلها أن تقدم على مثل هذا الكيد الحقير ؟ . . وما أسهل هذا ، فهى دائماً فى الخارج تغسل فى البيوت ولا تعود إلا آخر النهار . ففى استطاعة « الأخرى » أن تحضر فى غيبتها وتدس ذلك العمل فى فناء الدار حيث تعبر هى بضع مرات فى النهار .

وانتهت « أم صالح » إلى حيث تريد من هذا القصص الطويل المخيف . فاقترحت عليها أن تأتيها « بالحاج عطية » ، وهو رجل صالح و « مخاوى » ، متزوج بإحدى بنات ملوك الجن . تأتيه كل ليلة فتبيت معه حتى الصباح ، لا يراها أحد أبداً . وقد

أنجب منها بنين كثارا، تربيهم هى فى مملكة أبيها تحت الأرض ، وتمنعه أن يمس امرأة غيرها ، فهى تغار عليه غيرة شديدة شعواء . . .

ولكنها تعلم أنها لا تأتيه هذه الأيام من العام ، لأنها فى المخاض تحت الأرض ، ذلك المخاض الذى لا يخطؤها أبداً هذا الوقت من العام ، والذى ينتهى دائماً بابن جديد بارع الجمال خارق الأوصاف لهذا الغرام العجيب بين إنسى وملكة من ملكات الجان !

وهى لهذا تقترح أن تدعوه تواً ، وأن تلح عليه فى الرجاء لعله يرضى ، بل هى لا تشك فى أنه لا يرد رجاءها أبداً ، لما لها من منزلة عنده ، ولأنه أخبرها يوماً أن زوجه الجنية قد أوصته بها خيراً ، وقالت له أنها لا تحب من نساء العالمين إلا « أم صالح » فهى امرأة لها فى مملكة الجن مكانة ومقام . . .

* *

وعادت بعد قليل بصاحبها ، وهو كهل فى استواء العمر له لحية كثة وعينان زرقاوان واسعتان تتحركان بسرعة وتختفيان

بسرعة أيضاً تحت جفنين متهدلين ينبئان عن طبيعة حذرة ماكرة . . .

وقامت نعيمة فقبلت يده ، وجلس هو على طرف الطراحة ، ثم تناول الطاقية التى تلبسها المريضة الغائبة عن الصواب ، فجعل يتمتم عليها ويحوقل ، وينشرها فى يده ثم يطويها ، ثم يقيس بالفتر حيناً وبالأصبع حيناً ، ثم تنحنح وهز رأسه كمن انتهى إلى كشف عظيم . . .

وتعلقت نعيمة بشفتيه ، وطال انتظارها لما يخرج منهما بضع لحظات بدت لها عمراً ، ثم عاد إلى القياس مرة أخرى مع التمتمة والحوقلة ، ثم رمى الطاقية من يده فى حنق وصاح بالمرأتين :

— الملك الشعرانى . . . الملك الشعرانى الأحمر صاحب مدينة النحاس ، لابس جثتها ، ولا يمكن يفوتها إذ لم يموتها . . . وما الفائدة من دعوتى الآن ؟

وقام كمن يريد الانصراف .

فقامت « أم صالح » على يده تقبلها ، وانحنت نعيمة على قدميه تمسحهما بخديها ، وهما تستشفعان بالأنبياء والأولياء

وملوك الجان أن يبقى وأن يحاول إنقاذ المريضة .

كادت نعيمة تجن ، فإن فى يده إنقاذ حياة ابنتها ، وإنقاذها هى من شماتة الضرة المرة . . . على السواء . . .

وأخيراً لان وجلس وهو يقول : « ولكن هذا عمل متعب، وأنا رجل كثير الأشغال ، وعندى أعمال كثيرة لباشوات وناس كبار » .

فانحنت « أم صالح » على أذن نعيمة وهمست لها أن تسرع فتدس فى يده مقدار « نصف جنيه » تغريه به على العمل لإنقاذ ابنتها .

« نصف جنيه ؟ » ولكن ليس معها إلا أحد عشر قرشاً قرشاً ونصف هى كل ما تملك . . . فدارت « أم صالح » بعينها الخبيثة فى الغرفة وقالت لها :

— أليس عندك نحاس كثير ؟ . . . أقوم أوصل الحلة الكبيرة وصينية القلل لغاية بيته ، وهو على كل حال رجل طيب وفى قلبه الرحمة بالناس الفقراء . . . »

وقامت فهمست فى أذن الشيخ ، وجعل هو يهمس لها أيضاً ويشير بيده كالغاضب المتمنع . وأخيراً قبل ، فقامت « أم

صالح » وغمزت نعيمة أن تشكر الشيخ وتقبل يده ، وهز هو رأسه كالمتنازل الذى يعرف فى نفسه هذا الضعف ولين الجانب للفقراء . . . ولكن ماذا يصنع وهكذا خلقه الله ؟ . .

وأخذت « أم صالح » الحلة وصينية القلل وخرجت بهما مسرعة الخطو إسراعاً لم يعهد فيها من قبل . وهى التى تمشى فتتكفأ فى مشيتها تحت وقر الثمانين أو تزيد . . .

واستأذن الشيخ يمضى إلى داره للاستعداد لعمل الحجاب ، ولكتابة ثلاث ورقات تستحم الطفلة بمائها على ثلاثة أيام ، وسيرسل هذا كله مع « أم صالح » عند إشراق الصباح ، لأن الغاء السحر القوى وسلطان الملك الشعرانى الأحمر يستلزم عملا شاقا واستعانة بملوك أقوياء من الصعب استحضارهم دون وساطات وجهاد طويل . . . .

وأغفت وهى جالسة ، ثم أفاقت فجأة عند ابتلاج الفجر كالمذعورة ، وقد أحست كأن شيئاً يقبض قلبها قبضاً ، فإذا للفتاة المريضة شخير واهن مرعب . . . فتبلجت الحقيقة القاسية أمام عينيها ، وصرخت من أعماق قلبها الصريع وجعلت تشد

شعر رأسها فى عنف وثورة

واقتحمت الجارات الباب ، واقتربت هى تقطر من ثديها قطرات فى فم المحتضرة الصغيرة ، تبلل بها حلقها لتهون عليها غصص الموت ، لأنها هى قد أحست فى حلقها غصة مرة لا تذهب بها قطرات ولا بحار . . .

وفتحت الطفلة عينيها ثم أقفلتهما ، وسكتت الحشرجة ، وانقطع ذلك الإرتفاع والهبوط اللذان كانا يتداولان صدر المحتضرة الصغيرة . . .

وأخذت الأم نوبة من الالتدام الهائج ، ثم انطرحت على الأرض بين النسوة بغير حس ولا حراك . . .

وأفاقت من اغمائها ، فوجدت ضوء النهار قد ملأ الغرفة ، والنسوة من حولها ، والميتة الصغيرة مسجاة فى جوارها على الطراحة وقد غطيت بملاءة بيضاء من قمة الرأس حتى القدم ، وقد انحنى فوقها رجل راكع إلى جوارها ، على رأسه قبعة حمراء ، وكسوة كالتى يلبسها رجال جمعية الاسعاف .

وابتسم الرجل فى وجهها ابتسامة المطمئن الودود .

ــ ربنا معوض مخلف يا ست ... لا تحزنى ربنا عوض عليك ... ربنا كبير صحيح ... أنت حامل فى شهرين !

وغابت مرة أخرى عن الصواب ! ...

١١

الوحدة...

فراغ كالعدم من كل جانب .

أمانى الصبا تراود هذه الوحدة القاسية ، وما أكثر ما ترود الأمانى وادى العدم والحسرات . . . فإذا بلمعاتها المشرقة الجميلة عيون صلال سود تحف في كل سبيل بمواطئ الأقدام ، وإن كانت أنيابها الناهشة تُحس فى القلب المحترق الذى نخره دود الزمن ، فإذا الرسوم الجميلة التى رسمتها يد الربيع الغض قد غدت كلها كلوماً محترقة كوشم من نار لا تهدأ لذعته ولا تغسل مرارته الأيام . . .

فراغ يسلم إلى فراغ ، وعدم ينتهى إلى عدم . . .

تلك أيامها ، ظللها الموت بجناح من فوقها وهاوية تحت قدميها ، وحفتها الخيبة بقروح وأوجاع فى حناياها ، وبأخوات لها تتراءى عن يمين وعن شمال تترقب مكمناً جديداً تستقر فيه بين الضلوع . . .

وماذا بقى لها فى هذا التيه المظلم من ظل وادى الموت ؟ لم يبق لها ركن من قلبها تستقر فيه الجذوة السماوية التى تدفع الناس إلى

الأمام ، حتى عند ما لا يكون هناك أمام . . .

ولم يَعُدْ هناك ساعد ولو صغير كساعد الطفلة الرضيع يلوح لها كعود مورق يبشر يوماً بالربيع ، فتتخذ من غضارته الواعدة سنداً وأملا ولو إلى حين . . .

بل إن هذا الساعد كان هو البقية الباقية لها ، ولكنه الآن يبدو لها من بعيد بين أنياب الصلال السود ، تلوّح لها به كلما تلفتت لتذكرها المصير المحتوم ، ولتقول لها أن لا سبيل بعد للخلاص . . . وأنه لا شيء ينتظرها غير العدم والحسرة ، وأنه لا ربيع بعد خريف الحياة . . .

إنها تنتظر ساعداً آخر صغيراً ، ولكنها ترى فى عروقه بدل الدم صديداً من دمل صغير ، هو العلامة الصارخة لحكم القدر الذى يرتسم هنا على الجبين فى خطوط غير مقروءة ، ولكنها تتكشف فجأة فى ضربة قاضية من القضاء المحتوم . . .

لا سبيل ولا مهرب . . .

وهذا الميلاد الجديد تنتظره تلك الأنياب ، بل هو لها ، إنها هى التى خلقته ، وأولدتها إياه . . .

أليس هذا الرجل « قدرها المقدور » صُوِّر إنساناً ، وسلط

عليها منذ البداية ليتم عن طريقه ذلك المكتوب على جبينها منذ الأزل ؟ . . .

هو الذى تراءى فى أفقها لترسم حول شخصه تلك الرسوم العذبة فى قلبها ، ليتسنى للقدر أن يحول تلك الرسوم — فى قسوة وسخرية — وشما محرقا من نار وحميم . . .

وهو الذى أولدها تلك الذراع الرقيقة الواعدة فإذا وعوده سخرية وألم ، وإنذار لا يفتر صوته النافذ الرنان منذراً بالنهاية المحتومة التى لا مهرب منها من أى سبيل . . .

وهو أيضاً الذى جاءها — فى قسوة القدر وسخريته — قبل أن يرسل إليها ورقة طلاقها بيومين ليعيد إليها ذكرات من أمسها المورق الظليل ، وليتركها بعد فى وادى العدم ، وفى أحشائها هدية جديدة للقدر ، هى طعام جديد تنتظره أنياب الصلال فى ترقب حول قدميها ، لتتلقفه عند ما يكمل الأيام ويخرج من أحشائها ليدرج فى النور ، فتدلجه هى فى واديها السحيق الذى يتراءى هنا إلى جانبها ، ومن خلفها ، بل من فوق رأسها أيضاً . . . أيحسب الناس زرقة الجو عرشاً للرحمة ومسارب للنور ؟ إنهم إذن لواهمون ! إنها لمعات عيون الصلال ، صلال العدم والحسرات ،

وليست نجوماً تهدى الأفلاك فى إدلاجها وسراها . . .

عدم وفراغ حولها فى كل مكان . . .

بل إنها لتحمل الفراغ والعدم فى أحشائها. وما هذه الحركات التى تضطرب بها إلا إمعان القدر فى سخريته وأذاه . . .

إنه لثعبان ذلك الذى يتلوى فى أحشائها . . . ثعبان كتلك الثعابين التى تبصرها حولها فى كل مكان . ثعبان يريد أن يخرج من أحشائها فى صورة طفل ، حتى إذا أحبته وأخذت بذراعه الواهنة لتؤنسها وتتنسم فيها ربيعاً بعد الشتاء . . . عاد الطفل ثعباناً ولدغها فى صدرها ، هنا عند مفرق الثدى . وإذا الطفل ، والأمل ، والربيع قد ماتت كلها . وإذا بها تجد من جديد نفسها فى وادى العدم والحسرات . . . ، وقد صارت الحسرات فيه أمر وأقسى ! . . .

١٢

صديقة «أم صالح» ...

وحدة قاتمة . . .

حتى أم صالح ، تلك العجوز الماكرة [illegible] الأحرى ثعبان من تلك الثعابين التى سحرها القدر [illegible] . . كما سحر متبولى ، وكما سحر ابنتها حياة ، وكما [illegible] الذى يضطرب فى أحشائها ويتلوى .

هذه الخبيثة . . . إن لها الآن صاحبة [illegible] . . . من تطرق الحارة من قبل ، هى « رتيبة » بائعة [illegible] متولى الجديدة ، تأتيها مغرب كل يوم وتجمع حولها [illegible] نساء الحارة ، توزع عليهن اللادن والكحل [illegible] الطبل ، وتدق عليه دقاً متقناً سريعاً ماجناً [illegible] من حولها يرقصن رقصاً هائجاً ، ويعين [illegible] كرات محاسن « العريس » بكلمات مكشوفة [illegible] عالية ممطوطة تحس أصداءها فى صدرها الذى [illegible] تأخذها رعدة كرعدة المحموم ، وتحسه [illegible] الدواعى التى ما فتئت منذ البداية تلاحقها فى [illegible] إلى

إدراك كنهها ، فهى تارة متبولى والستار وابن الجيران ، ثم هى ابنتها، ثم هى أم صالح ، ثم هى هذه الرتيبة الماجنة وصواحبها، بل هى تلك المضغة من قذيفة الثعبان فى أحشائها . . .

وخرجت فى الظلام ذات ليلة هرباً من هذا الجحيم ، هائمة على وجهها بين طرقات الحى ، ثم فى الشارع الكبير وعند الميدان حيث يموج الناس ويلتقون ويفترقون فى غير ترتيب ولا نظام منغوم .

ووقفت تحت مصباح من المصابيح تنظر فى الغادين والرائحين وتأتنس بهم ، فإنها تستطيع هنا أن تطمئن على الأقل أنه لا ثعابين ترود حيث لا ينقطع الناس عن سحق وجه الأرض بنعالهم وعجلاتهم وبحوافر الدواب . . .

ولكن هذه الثعابين الشيطانية لا يعييها أن تظهر لها ساخرة فى صورة مبتكرة . . . فهذا هو ابن الجيران الموعود الذى انتظرته طيلة صباها وحلمت به وعاش فى طوايا ضميرها دهراً طويلا ، هذا هو بشعره المصفف وعينه الخضراء ، وطراوته وبزة أبناء المدارس المترفين . ها هو يقترب منها مُتَثَنِّياً فى مشيته فى دلال ومجون . . .

يا للعنة ! إنه يحدق فيها ثم يضحك . . . إنها بعينها ضحكة الشياطين التى تسمعها من أفواه الثعابين كل مرة سخرت منها هذه الثعابين أو لدغتها . . .

إنه يضحك ضحكة ساخرة ماجنة رعناء ، ويلوى شفتيه ، ثم يدير لها كتفه وهو يقول :

— يا « سبارس » !

وتمضى على وجهها من شارع إلى شارع ، وضحكة ترن فى أذنها « يا سبارس ! »

نعم ! إنها لكذلك ! بل إنها كانت دائماً كذلك ولكنها لم تكن تدرى . . .

أليس هذا قدرها منذ البداية ؟ ألم يكن مكتوباً دائماً على جبينها . . . فهى لم تكن فى إشراق صباها إلا تمهيداً لذلك المصير المحتوم . . . أليست السيجارة الفاخرة السوية لازمة لكى تتخلف عنها السبارس والأعقاب . . .

أجل إنها كانت دائماً سبارس ، ولم تكن إلا سبارس حتى وهى امرأة تشتهى وتملأ صدرها الآمال . . .

سبارس وزحام وأقدام . . .

ثعابين فى كل صورة وفى كل مكان . . .

وتنتهى عند الفجر إلى غرفتها فترتمى على الطراحة حتى الصباح ، ثم تقوم مذعورة لترى الثعابين من حولها فى كل شىء وفى كل مكان . . .

تستقبل عملها ، وتنظر إلى الناس نظرة غريبة مذهولة فى سخرية وتوجس وتبلد فى آن واحد . . .

فإن هؤلاء الناس لا يرون الثعابين ، أما هى فتراها رأى العين . أفيظنون أنها غير موجودة ؟ إنهم لحمقى ! . . . إنها هى تعرفها . . . بل من أدراها أنهم ليسوا هم أيضاً ثعابين . . . إنها لتتوقع أن ينقلب أى شىء ثعباناً ، وأن تسمع الضحكة الساخرة القاسية من الكرسى ، أو الموقد أو كومة الغسيل . . .

وماذا يرون فيها ! أغاسلة بالكراء . . .

ألا ساء ما يتوهمون ! . . .

إنها تعلم الحقيقة المخبوءة من أمر نفسها كما تعرف الحقيقة من أمرهم . . .

إنها سبارس

ولكن الناس حمقى لا يبصرون ولا يفهمون . . .

أما هي فتعرفهم ، وتعرف أنهم ألعوبة الشيطان الخبيث ، وصور يتخذها لنفسه ليلهو بهذا وذاك حيناً ، وليسمعها فجأة ، ومن حيث لا تنتظر ، من أحشائها مثلا ، صوت ضحكته . . . فإنه يبدو أن هذه هي لعبته المفضلة معها .

١٣

صرعة الداء . . .

وبرز بطنها بروزاً شائهاً ، فلم يكن أكبر من هذا البطن على أنحف من هذا الجسد الهزيل المتداعى . . .

وقد تعودت الصمت ، فلا تحدث أحداً ، ولا تنظر إلى أحد إلا شذراً . . . وإنها لتتوجس من الجميع توجساً مصدره عرفانها لبواطنهم المطوية عن الأنظار . . . إنهم جميعاً أفاع تتخذ من الصور ما تشاء بفعل قدرة شيطانية يسخرها القدر ليسخر منها حيثما أمنت واطمأنت إلى مطابقة البواطن لحقائق الأعيان .

صمت مضطرب وحذر هائج لا يفتر ولا يُسلم إلى طمأنينة أو هدوء ، فحياتها انطواء على ذكريات « وداد كل ما فيه رياء ، وعداء كل ما فيه افتراء ، وسكون كل ما فيه اضطراب . . . »[1]

هذه النظرة المحمومة التى تنبئ عن عالم معزول عن عوالم المرئيات والظواهر والأوضاع والمواضعات ، وهذا الصمت المضطرب اضطراباً يفوق الضجيج والاعوال وهياج من بهم مس من شيطان أو من خبال . . ، كان ينأى بالناس عنها كما نأى بها عن

---

(١) العقاد : رثاء مى .

الناس ، فهم يحسون بها شبحاً من عالم غير عالمهم لا ينظر إليهم أهله نظرة مودة أو إعزاز . . .

ووهنت يدها عن الغسل الجيد الذى عرفت به فى أيام صباها ، ووهن صدرها عن احتمال رطوبة البكور عند إقبال الشتاء ، بعد أن وهنت نفسها دون تقبل الحياة . . .

وبدأ السعال ينهكها ، وبدأ إعياء النفس يدفع بإعياء الجسد إلى رقدة طويلة تحت وطأة الداء ، تقطعها يوماً كل بضعة أيام لتدور فى الطرقات على غير هدى ، باحثة عن شىء تجهله ولا يعنيها أن تعرف ما هو ، أو لتبيع شيئاً من النذر الذى بقى لها ، وأخيراً ، عند ما فرغ كل شىء ، باعت الستار وأكلت بثمنها ، ثم مدت يدها لسؤال الناس كلما وجدت فى ساقيها قدرة على حملها إلى الطريق . . .

* * *

وكملت أيامها ، فراحت فى غيبوبة طويلة لا تنقطع إلا قليلا ، وقد أخذت تفتح عليها الباب فى اليوم بعد اليوم صبية فى العاشرة أو نحوها ، عرفتها فى الميدان الكبير حيث كانت تجلس أحياناً لسؤال المارة أو للتحديق فيهم ، وكانت هذه الفتاة تجلس

دائماً فى ذلك الموضع لتبيع أقراصاً من العسلية لصبيان الشارع ، ولتتقبل بعض المليمات أحياناً من زائرة تقية لضريح « أم هاشم » .

لقد كانت هذه الفتاة تأتيها عصر كل يوم فتعطيها قليلا من اللبن وتمضى . . .

وكانت هى تنظر إليها نظرتها الحاذرة المائجة بالذحول والخوف ، وتترك اللبن فى الكوز الصدىء إلى جانب رأسها لا تقربه .

وتنصرف الفتاة . . . وعند إقبال الليل ترى نواصى صبيان الحارة تتطاول لتنظر إليها من الشباك ، وهم يصيحون : « العفرية هه . هه ! » .

. وتنظر إلى كوز اللبن ، وإليهم ، وهى خائفة مذعورة ، ثم تتناول الكوز كمن يهم بأمر عظيم عقد العزم على المخاطرة فيه ، وتشربه جرعة واحدة ثم تستلقى كمن ينتظر الموت . ولكنها تستيقظ ثانية فى الصباح . . .

١٤

الحادث المنتظر السعيد

وجاءها المخاض ، فحضرتها داية عجوز ، أحضرتها « حسيبة » بائعة العسلية الصغيرة . . . حضرتها يوماً وبعض يوم ، لا تجد من نفسها قوة لإخراج ما فى أحشائها ، ولا تجد فى نفسها رغبة فى ذلك . . .

وأخيراً ، خرجت إلى النور « فتاة » أخرى ، دمية لا تزن رطلين ، زرقاء ، عجفاء ، لا يكاد يتردد لها نفس أو يسمع لها حس إلا مواء كمواء الهريرة العمياء . . .

أما الأم فكانت فى غيبوبة متصلة .

وانصرفت الداية العجوز بعد أن استوفت حقها ضرباً فى الفتاة الصغيرة « حسيبة » التى نقدتها ثلاثة قروش وهى تحسبها فوق الكفاية . . . وقد تجمع النسوة الساخرات وصبيان الحارة أمام النافذة والباب .

وجلست الفتاة الصغيرة فى ركن الغرفة البعيد ترقب « نعيمة » المجنونة ووليدتها ، وأخيراً ، عند ما تفرق النساء والصبيان ، تسللت إلى الخارج فى صمت .

وظلت الفتاة تمر بالغرفة كل يوم تحمل اللبن ، وتقطر منه للرضيع التي لم يدر ثدى أمها لبناً من أجلها بعد . . .

وفى اليوم الثالث حدثت حسيبة النفساء حديثاً لم تلق بالها إليه ، عن ذلك الشرطى الذى جعل يضايقها أخيراً ويطاردها ويضيق عليها الخناق فى كل مكان . . .

وفى اليوم الرابع حضرت شعثاء الشعر ممزقة الثياب خالية الوفاض ، وجلست فى الركن البعيد من الغرفة وقد ضمت ركبتيها إلى صدرها وأسندت رأسها إليهما ، ثم رفعت وجهها المزيل ونظرت إلى النفساء وطفلتها التى تموء . . . فإذا النفساء تحدق فيها فى ذهول وصمت نظرة بعثت فى نفسها غير قليل من الاضطراب ، فأشاحت بوجهها ثم قامت وخرجت فى سكون . .

وفى اليوم الخامس لم تحضر . . .

وخفت مواء الوليدة ، وانقطع إغماء النفساء الذى كان ينتابها حيناً بعد حين ، وإن يكن قد زاد إعياؤها كثيراً . . .

١٥

نداء البـــئر . . .

ظلت طيلة يومها تنظر إلى الطفلة التى يرتفع مواؤها الخافت القصير قليلا ثم يسكت ، وهى لا تحرك رجلا ولا يداً . وتنصت لثغاء النسوة فى الحارة يتعاركن ثم يستأنفن تبادل الأسرار وأحـوال الرجال معهن وأخبار الطعـام والشراب وماء الحمَّـام . . .

وكأنما قد نسيها الصبيان فلم يقذفوا خشب النافذة بالحجارة والطين ، ولم يسبوها أو يذكروا شياطينها وخبالها المزعوم ، ولعل الصبية بائعة العسلية هى التى كانت تذكرهم بها فى دخولها وخروجها .

ودارت فى رأسها أفكار مضطربة باهتة . فهذه أمها تلقمها الطعام فى يدها وهى بعد طفلة صغيرة . وهذا متبولى يطعنها بسكين . ولكن الدم لا ينبثق من الجرح . بل ينبثق منه لبن ومع اللبن صديد كريه الرائحة مائل إلى الاخضرار . وتكون بجانب الجرح دمل صغير جعل يكبر ويكبر . ثم انفتح وبرز منه ثعبان كبير جعل يمسح بلسانه الملتهب بطنها وثدييها .

ثم تنتبه من الحلم على مواء الصغيرة مواء ضعيفاً جداً لا يكاد يسمع .

لعلها جائعة ، أو لعلها فى حاجة إلى تغيير ملابسها ، ولكنها لم تتحرك لشىء من ذلك .

وتقول لنفسها أن شد ما تكره هذه الصغيرة الفضولية الشوهاء ، فإنها أحبولة أخرى من أحابيل ذلك الثعبان الشيطانى الموكل بها . . . وكم تود لو ماتت هذه الصغيرة جوعاً . . .

ولكن يدها تمتد دون أن تشعر إلى ثديها فتعصره ، ولكن الثدى لم يدر شيئاً . . . أو لعل يدها لم تعصر الثدى عصراً كافياً . . . فمن أين لها قوة فى أصابعها للعصر ، بل من أين لها لبن فى ثديها وهى لم تذق طعاماً منذ يومين ؟

وسمعت دعاء دجاجة فى الطريق تستعد للبيض . . . فتصلبت أصابع يدها تغرسها فى وركها المتهدل الهزيل . . . وحاولت رفع نفسها ولكنها لم تستطع ، فألقت رأسها ثانية على الوسادة القذرة فى استسلام قانط وهى زائغة العين . . .

وعند انسدال الليل عادت الطفلة إلى المواء الضعيف ،

أضعف من ذى قبل ، فنظرت إليها بجنون . . .

انها تكرهها . . . وتكره فيها عجزها مجسما عن مواجهة الحياة ومقاومة قدرها المكتوب .

وفى حنق وثورة وجدت فى نفسها قدرة على القيام ، والخروج إلى الطريق . . .

ودلفت من حارة إلى حارة تستند إلى الجدران ، وتستريح عند كل عتبة لتبتعد عن هذه الطفلة . . . عن صورة أيامها وعجزها ونصيبها المتجدد من حولها فراغاً وعدماً . . .

وانتهت إلى دار خربة مهجورة جلست على عتبتها . . . ولكنها سمعت وقع خطوات حارس الليل ، فدخلت تختبىء فيها ، وجلست هناك بين الأحجار والأطلال فى ضوء القمر الساطع ، على حافة بئر قديمة . . . وسمعت فى البئر أصواتاً ، أصواتاً خافتة خشنة . . . لعله دوى الريح يغوص فيها . . . فإن الريح لشديدة فى هذا الليل بحيث تعصف ببنيتها الواهنة عصفاً .

لقد تبينت أخيراً هذه الأصوات المبهمة المجهولة . . .

إنه نداء الشياطين . . . لقد تبعتها إلى هنا ، بل لعلها هى التى دفعتها إلى هذا المكان لكى تلتقى بها هنا .

إنه نداء قدرها ، يذكرها أن لا مفر لها من المحتوم .

فراغ وسخرية وعدم . . .

وقامت مذعورة تجرى ، أو تحسب أنها تجرى ، وهى تتكفأ وتقوم ، حتى عادت بعد انتصاف الليل إلى حجرتها التى يملؤها ضوء القمر .

وارتمت على الطراحة ، وسمعت أنين الطفلة . . . ضعيفاً خائراً ، كأنه احتضار . . . يا لله ! بل إنه لاحتضار ، وأقبلت كالمجنونة تعصر ثدييها كليهما وتضع الواحد منهما بعد الآخر فى فم الفتاة الوليد ، ولكن فى هذه المرة . . . بغير جدوى .

وزمجرت الريح بين سعف نخلة قريبة فى العراء ، فكأن صوتها هو فحيح الثعابين المعهود ، وأعوال الشياطين . .

وتملكها الرعب . . .

ورن فى أذنيها وبين أضلاعها نداء البئر . . . إنه هو نداء البئر ، نداء المحتوم . . . قد تبعها إلى هنا ليؤكد لها أن لا مفر من المكتوب . . .

ونظرت إلى الطفلة ، فاذا صدرها يعلو ويهبط فى سرعة ، فحملتها فى جنون ومضت بها لا تلوى على شيء . . .

وعند البئر وقفت تنصت فى ضوء القمر بين الخرائب والأطلال ، ثم نظرت حولها ، ثم تطلعت إلى القمر الساطع فى كبد السماء ... فاذا به هو الآخر ... يضحك ! ..

نعم إنه كان يضحك ... إنه هو أيضاً صورة أخرى لذلك الشيطان الموكل بها ، يسخر منها أيان نظرت وأيان تكون ...

وارتفعت الأصوات مرة أخرى من جوف البئر خشنة قاسية فى سخرية وزمجرة وضحك مكتوم .

وألقت الصبية إلى قدرها الذى أولدها إياها وانطلقت مبتعدة لا تلوى على شىء ...

لقد حسبت أنها تجرى ...

ولكنها لم تبلغ إلا عتبة الدار ، وهناك تعثرت وانكفأت على وجهها وأسلمها الإعياء إلى الاغماء .

وهكذا وجدها المارة عند طلوع النهار ...

١٦

المدالة الساهرة تقتص . . .

وفتحت سيارة السجن عن باب منخفض يؤدى إلى مسرب تحت الأرض تجلس فيه طرائد القانون فى انتظار كلمة العدالة الساهرة : معصوبة العينين (يا للسخرية !) وفى يسارها سيف وفى يمينها قسطاس !

ودخلت مع الداخلين والداخلات فاتخذت لها مستقراً على « الدكة » الخشبية ، وقد دلت ساقيها ووضعت يديها المصفدتين فى حجرها ، وأخذت تنظر إلى الفضاء من كوة صغيرة فى البنيان . . .

لم يكن مرآها ينم عن اهتمام بشىء مما يدور حولها أو مما ينتظرها بعد قليل .

ولقد تنظر أحياناً جنبتيها لتتأمل هذه المرأة الماجنة العابثة فى مظهرها وحركاتها ، ثم ترد بصرها إلى هذه العجوز التى تبدو عليها السذاجة والتقوى . . . وتهم بتحريك يدها لتهرش فى ظهرها ، فإنها تحس فيه أكلاناً لاذعاً شديداً ، ولكن يردها عن ذلك قيد الحديد ، فتعود ببصرها إلى التحديق فى الفضاء

خلال قضبان النافذة ، وقد بدت لها القضبان فى هذه اللحظة أضخم مما كانت من قبل .

ودفعوها من سلم آخر مع غيرها من رجال ونساء إلى وجه الأرض ، فإذا بها فى قفص من حديد فى قاعة من قاعات محكمة الإستئناف . . .

وإذا القاعة ملأى بأخلاط من الناس بين محترف وصاحب مصلحة ومتفرج خلىّ .

وأقبل أقرباء المتهمين والمتهمات يطمئنونهم أو يتزودون منهم فى أسى وتوجس ، وأقبل المحامون على موكليهم يبثون فيهم الرجاء . . .

وأخيراً أقبل شاب أنيق مرتفع الصدر على قصر فى قامته ، منتفخ الأوداج فى كبر ظاهر ، أبيض مشرب بحمرة ، كأنه بطربوشه القانى أحد تلك الشخوص الجميلة المنمقة التى ترى فى واجهات المتاجر الكبرى تعرض على الناس أحدث الأزياء .

وجلس إلى جوار القفص فى مقاعد المحامين ، بعد أن رفع بعض سرواله ، ووضع حافظة أوراقه الجديدة اللامعة على

القمطر الممدود أمامه فى زاوية أنيقة ، ثم التفت ناحيتها وأشار إليها أن تقترب .

وكانت هى ترقب حركاته فى اهتمام لا داعى له أبداً إلا أن تشغل فراغها بحركات الكائنات من حولها، لأنها لا ترى شاغلا يشغلها من أمر نفسها بعد . . .

وتذكرت غدواته وروحاته فى السجن ، يفحص قضيتها التى ندبته المحكمة بالمجان للدفاع عنها فيها . . .

وانه لينظر إليها نظرته إلى شيء قذر لا يمت بصلة إلى دنياه ، وانه ليسخر منها ومن غبائها وتبلدها ، بل يسخر أكثر من ذلك من فقرها الشديد الذى لا يسمح لكائن غبى أن يعيش ، فإن الفقر لا يغتفر إلا للنابهين . . . أما الأغبياء ، فلماذا يعيشون إذا كانوا فقراء أيضاً إلى غبائهم الأصيل ؟ . . .

ولقد أحست منه رغبة عن مهمته فى هذه القضية التى لا يرى نفسه يشرف بالدفاع فيها . . . بل لعله ينفس على ممثل الاتهام تلك الفرصة المواتية للتجلية فى حلبة البلاغة والبيان ، والتشدق : بالعواطف الغريزية وبالعدالة والضمير والمثل الخلقى و « بالإنسانية تنتظر كلمتكم يا حضرات المستشارين » . . .

يا لله ! كم يبدو جميلا أن يقول الإنسان هذا الكلام على ملأ من الناس ، وأن يشير بيده هكذا فى وقار ورشاقة . . .

ولقد سألها مرة أخرى ، لعلها الأخيرة ، ألا تزال عند رأيها . . .

وثبتت فيه بصرها برهة ، ثم هزت رأسها بالإيجاب . . .

وهز هو رأسه كمن يتأسى ويرثى لحال نفسه كيف زُج به فى هذه القضية مع هذه البلهاء التى تأبى أن تنقذ نفسها أو أن تتيح له أن يحاول انقاذها . . .

واضطرب فى القاعة صوت الحاجب ذى الشارب المفتول والقامة المديدة والصوت المسموع ، ينادى فى الناس بالسكوت . ثم فتح باب عن يمين قفص الاتهام وخرجت منه هيئة المحكمة ، فاتخذت مكانها على المنصة العالية تحت لافتة كتب عليها بخط غليظ : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

ولم تكن هى تعرف القراءة ، ولم يكن غيرها ممن معها فى القفص يعرفها كذلك . لهذا لم يحدث فيهم التأثير المطلوب ، فلم يأخذهم الخشوع ولا الطمأنينة المفروضة عند ما وقع بصرهم على هذا المكتوب فوق رؤوس قضاتهم المسربلين بالسواد . . .

أما هى فكانت تنظر إلى هذا المكتوب فوق رؤوس القضاة ، وإلى القضاة أنفسهم ، وإلى ممثل الاتهام والكاتب عن يمين وعن يسار ، وإلى المحامين والشهود والحاجب الصائح على الناس هنا وهناك ، نظرتها إلى عناصر من قضائها وقضاء الناس كافة ، لا تفهم منه شيئاً ولا يجول بخاطرها أنه شيء يمكن أن يفهم بحال . . . ، ولكنه يُستقبل كرهاً أو طواعية أو عن يأس واستسلام دون فهم أو توقع أو دفاع . . . .

ونوديت قضية هذا وقضية ذاك ممن معها فى القفص ، ترى بعضهم يناضل ويحاول ، وهذا الشاب ذو الوشاح الأحمر يعصره عصراً ويحاوره كأنما يريد أن ينشب أظافره فى عنقه حتى يورده موارد الهلاك ، تنفرج عنه شفتا هذا الكهل الوقور الذى يتوسط زميليه فى ثقة وهدوء .

لم تفهم ، وإن كانت قد توجست وتأكد لديها أن الأمر كله قدر مقدور منذ البداية ، رسمه هؤلاء الناس أو رسمه لهم أحد غيرهم ، واقتسموا هم أداءه ، ولا يد لها يدفع ذلك أو التدخل فيــه . . .

وجعلت تنظر إلى كل محكوم عليه ، وقد انحط على المقعد

...

متداعياً كئيباً ، ثم لفت نظرها عصفور مرح فى ذلك الصباح المنتعش من أيام الربيع ، يغدو ويروح عند أعلى النافذة الكبيرة ، حيث بنى عشاً فى ركن من السقف يدخله ويخرج منه فى خفة ومرح وإقبال على الحياة ... فاستأثر ذلك العصفور بانتباهها دون جميع ما يجرى حولها من تصرف فى مقادير الناس كافة ، فذلك كله أمر مكتوب لا يفهم ، يسير على نمط واحد قديم إلى ختام معلوم ...

ولكن هذا العصفور الصغير شيء جديد حقاً ، وهذه الشمس المشرقة الضحوك شيء جميل حقاً ، وكل هذا قابل لأن يُدرك بالحس وأن يُفهم بمشاركة الشعور ... أما هذا الذى يضطرب حولها ، فلا تفهمه ولا تشارك فيه بفهم ولا إحساس ...

وانتبهت إلى الحاجب ينادى اسمها ...

ووقفت كما أشار إليها حارسها الذى يجذب فى إصرار طرف شاربه الخفيف كأنما يريد أن يستحثه على الطول والنماء ...

وأجابت على الأسئلة المعتادة .

وسئلت عن الجريمة ، اتعترف باقترافها ، فأجابت بالإيجاب ...

ثم سئلت لماذا فعلت هذا . . .

وهنا سكتت برهة لا تجيب .

ألعلها هى تعرف لماذا فعلت هذا ؟ أفيظن هؤلاء الناس الأذكياء أن هذا شيء يعرفه الفاعل ؟ قد يكون هناك سبب ، ولكن لم يخطر ببالها أبداً أن الفاعل هو الذى يُسأل عن ذلك السبب ، فأن يفعل الإنسان شيئاً ما مختلف جداً عن عرفانه لسبب هذا الذى يفعله . . .

وعجبت لهؤلاء الناس الذين يسألونها هذا السؤال العجيب غير المعقول . . .

ولكن أمر هؤلاء الناس كله غير مفهوم ولا معقول فيما ترى . . .

ونظرت إليهم نظرة عدم اكتراث ، نظرة العارف الذى يرشد إلى حقيقة كبرى ما كان ينبغى بأية حال أن يغفل عنها السائل :

— شيء مكتوب !

كانت مؤمنة بما تقول ، وترى فيه الكفاية وفوق الكفاية لكى يوضح كل شيء ، وخصوصاً لهؤلاء الذين لا ترى فيهم أيضاً إلا عناصر وسطور من المكتوب . . .

ونظر المحامى إلى المحكمة والنيابة وهز رأسه ...

ووقف ممثل الاتهام ، فأصاح من عقدة رباط رقبته المعتنى بها ، وأصاح من وشاحه الأحمر ، وأخذ يتكلم بلغة تفهم بعض ألفاظها ولا تفهم بعضها الآخر ، ويلوح بيديه بحماسة وزهو ، ومحاميها يستخزى لذلك الكلام ويبدو عليه كما لو كان يحب أن يقول عين هذا الكلام بلا زيادة ولا نقصان بدلا من الدفاع عن هذه البليدة البلهاء ...

وانصرفت هى عن كل هذا إلى العصفور المزقزق فى ركن من سقف البناء عند النافذة الكبيرة ...

ولكنها انتبهت فجأة ، فإذا المدعى يناديها بالمجرمة ويشير بذراعه إليها وينبه المحكمة إلى أنها خطر على المجتمع ، وخطر على العالم ، خطر داهم كبير ، وأنه ينبغى أن تجرد العدالة المقدسة وأن يجرد المجتمع قوته اليقظة الباسلة لكى يقضى عليها ... هى المرأة الهزيلة التى لا تفهم من كل هذا شيئاً ، ولكنها تنظر فى اهتمام إلى الشمس والعصفور ، وتؤمن بالنصيب المكتوب ...

وهز القضاة رؤوسهم فى اتزان .

وجلس النائب راضياً عن نفسه وحسن بلائه .

ووقف المحامى فتمتم كلاماً لم تتبينه . . .

لقد عرض عليها أن يحتج بفقرها وحاجتها . . .

ولكنها رفضت . . . وهل الفقر عذر؟ . . . أليس الفقر نفسه شيئاً مكتوباً على بعض الناس ؟ . . .

لقد قالت له ان سبب جريمتها . . . هو هذا المكتوب ، وأنه لا حاجة بها إلى الاحتجاج بالفقر . . .

وعرض عليها أن يقول إنها كانت فى حالة شاذة . . . آه ! لقد فهمت إنه أراد أن يقول إنها مجنونة . . . كما كان يقول عنها صبيان الحارة الملاعين . . .

إنه أحمق كبقية هؤلاء الحمقى الذين لا يرون وراء الصور المتباينة حقيقة المكتوب ، ولا يعترفون للثعابين والشياطين الموكلة بالناس بوجود

إنه واحد آخر من سائر من يحسبون أنهم عقلاء أذكياء ، وهم لا يرون ولا يحسون . . .

إنه لن يفهم لو حدثته بقصتها ، ولن يستطيع إدراك ما هو نداء البئر . . . وضحكة القمر ، والثعابين السود . . .

ورفعت رجلها عن الأرض بحركة سريعة لا إرادية كمن

يبعدها عن عقرب أو ثعبان ...

وهؤلاء الناس ، المتشحون بالسواد ، الحبيسون فى وقارهم ومعتقداتهم لن يفهموا هم أيضاً ما ليس من عالمهم ...

لا جدوى من الكلام ... فهذا الغباء المحيط بها ، وقلة الفهم والمشاركة بالوجدان إنما هو أيضاً شيء مكتوب .

وعادت إلى الاهتمام بالشمس والعصفور ...

ما أجمل شمس هذا اليوم ، وما أعظم الفرق بين صحو الجو فى الخارج وبين عتمة السجن والرطوبة ...

وسئلت مرة أخرى ألا تقول شيئاً ...

وهزت رأسها سلباً .

وخلت المحكمة للمداولة ، فإن العدالة « المعصوبة العينين » يلزم لها كما ترى بعض الوقت كي تنصب موازينها وتصدر أحكامها بكل ثقة وراحة ضمير ...

ويظهر أن العدالة انتهت أخيراً إلى قرار من هذا النوع ...

إذ صاح الحاجب مرة أخرى « محكمة ... »

ونادى الرئيس متهماً وراء متهم ، ثم ناداها وأعلنها بصوت هادىء لم تفتها عذوبته ، أن العدالة الساهرة قد خصتها

بثلاث سنين مع الشغل والنفاذ . . .

وحدقت فى القاضى لحظة وهو يتابع قراءة الأحكام ، فإنها لم تفهم جيداً ، ولكنها تذكرت أن هذه الأمور لا سبيل إلى فهمها ، وإنما هى كلها نصيب مكتوب . . . ، فأشاحت بوجهها إلى النافذة والشمس الضاحكة والعصفور الصغير .

ولكنهم لم يمهلوها إلا قليلا ، ثم أخذها الحراس مع من أخذوا ذلك النهار ، إلى حيث ينفذون فيهم ما « رأت » العدالة « المعصوبة العينين » فى شأنهم على ضوء العقل والقانون .

وهذه هى الجريمة ! . . .

اقرأ

١٩٤٣ ١٩٤٨

صدر منها ٦٣ كتابا فى مختلف ألوان الفكر تداول كتابتها أعلام الكتّاب فى مصر والشرق العربى وقد رضى عنها جمهور القراء فى جميع البلاد العربية .

ثمن النسخة

فى مصر ٥٠ مليما فى سوريا ولبنان ٦٠ غ ل س
فى السودان ٥٠ مليما فى العراق ٦٠ فلسا
فى فلسطين وشرق الأردن ٦٠ ملا

احرصوا على الاحتفاظ بهذه المجموعة كاملة فهى ذخر ثقافى قليل النفقة كبير الفائدة وقد تكون فى كل منزل نواة لإنشاء مكتبة يستفيد منها الشيوخ والشباب .


روضة الطفل
١ أرنبو والكنز
٢ كتكت المدهش
٣ عيد ميلاد فلّة
٤ فرفر والجرس
٥ ذيل الفأر
٦ البطة السوداء
أول مجموعة من نوعها
باللغة العربية يجد
الطفل فيها قصصًا مفيدة
مزينة بالصور المبتكرة
ومطبوعة بالألوان الجميلة
ثمن النسخة
٧
المجموعة الجديرة بأن توضع بين يدى كل طفل
لتصعد به إلى الدّرجة الأولى من سلّم المعرفة
فى جوّ من المتعة والتسلية......
تصدرها
دار المعارف بمصر